العرب

مجلة تُعنى بتاريخ العرب
وآدابهم وتراثهم الفكري

أسسها حمد الجاسر سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م)

صاحب الامتياز المسؤول: معن بن حمد الجاسر

الجزء الخامس والسادس - السنة ٥٤

ذو القعدة - ذو الحجة ١٤٣٩هـ
تموز - آب / يوليو - أغسطس ٢٠١٨م

رئيس التحرير

أ. د. أحمد بن محمد الضبيب

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. أسعد بن سليمان بكر عبده

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

أ. د. عبدالعزيز بن ناصر المانع

أ. د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق

العنوان

التحرير: واصل ٢٧٩٢ - شارع أبي دجانة - حي صلاح الدين - وحدة رقم: ١
الرياض ١٢٤٣٢ - ٦٧٥٢

ص ب: ٦٦٢٢٥ الرياض ١١٥٧٦ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٢٦٩٠٥١٢ (١١ ٩٦٦+) مباشر: ٢٢٥٣٦٨٣ (١١ ٩٦٦+)

الاشتراكات: ٦٩٧٨ شارع حمد الجاسر - حي الورود - الرياض

ص ب: ١٣٧ الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٠٤٦٦٤ (١١ ٩٦٦+) لاقط: ٤١٩٤٥٠٣ (١١ ٩٦٦+)

الصفحة الإلكترونية: www.hamadaljasser.com

للمراسلة: arab@hamadaljasser.com

ضوابط النشر في المجلة

١- أن يكون البحث داخلاً ضمن اهتمامات المجلة وهي الموضوعات المتعلقة بتاريخ العرب، وآدابهم، ولغتهم، وتراثهم الفكري.

٢- ألا يكون البحث مقدماً للنشر في مجلة أخرى، وأن يكون في نسخته الأصلية.

٣- أن يتأكد الكاتب من سلامة اللغة، وحسن الترقيم والتوثيق، وضبط الألفاظ غير المألوفة بالشكل الصحيح.

٤- أن يتسم النقد بالأسلوب العلمي الخالي من الإساءة إلى شخصية المؤلف أو الباحث.

٥- لا تُعاد البحوث إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تُنشر.

٦- ترتيب البحوث داخل المجلة يخضع لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانه الكاتب.

٧- الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كاتبيها وليس بالضرورة عن رأي المجلة.

٨- المكاتبات توجه إلى رئيس التحرير.

٩- يفضل إرسال المادة إلكترونياً في ملف (وورد) إلى عنوان المجلة:

arab@hamadaljasser.com

الاشتراك السنوي:
٦٠ ريالاً للأفراد، و٢٠٠ ريال لغيرهم.
ثمن الجزء ١٠ ريالات.

الإعلانات:
يتفق عليها مع الإدارة

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤١٨

رد مد (ISSN) : ۲۶۷۱-۱۳۱۹

الفهرس

واقع التعليم في القرون الإسلامية المبكرة	أ.د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	٢٩٧
شعر أبي جَعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِيّ (ت ٧٧٩ هـ)	أ. د. عبد الرَّازِق حويزي	٣٢٣
إحيائية ابن التلاميد بالمشرق: إقلاع وإقناع (وقفات مع الإسهام اللغوي في المشروع النهضوي)	د. محمدن بن أحمد بن المحبوبي	٣٤١
فيض الذاكرة المعطاء قراءة في تعليقات البحّاثة الثبت عبدالحميد الرشوديّ (١٩٢٩– ٢٠١٥م)	أ.د.نادية غازي العزّاويّ	٣٦٣
واقع اللغة العربية قراءة في عوامل الانحراف، وأسباب التنكر	د. آمنة بن منصور	٣٨٣
كتاب الدكتور عبدالعزيز المانع (على خطى المتنبي) من الفكرة إلى الإنجاز	أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق	٣٩٩
أعلام العرب: الشيخ محمد العلي الحركان أول وزير للعدل ورائد حوارات الأديان مع الفاتيكان ١٣٣٣هـ – ١٤٠٣هـ (١٩١٢ – ١٩٨٣م)	د. عبدالرحمن الشبيلي	٤١١
مكتبة العرب: محمد عبدالخالق عضيمة سيرة حياة؛ تركي بن سهو العتيبي	إبراهيم باجس عبدالمجيد	٤١٥

واقع التعليم
في القرون الإسلامية المبكرة(*)

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

لعل من المناسب في البداية إلقاءَ إطلالة سريعة على الحالة العلمية في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

لا شك أن الأمية كانت سائدة في ذلك العصر، لكن لا يعني ذلك عدم معرفة العرب بالقراءة والكتابة بشكل قاطع، ولدينا الكثير من الأدلة التي تثبت معرفة العرب بالقراءة والكتابة وتقديرهم لقيمتهما، وأول دليل نستدل به من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1].

ففي هذه الآية يحاول كفار قريش تعجيز النبي ﷺ لإثبات نبوته، بحيث اشترطوا عليه، حتى يؤمنوا به، أن يرقى إلى السماء وينزل عليهم كتابًا يقرؤونه. ومن دون شك أن من لا يحسن القراءة لن يطالب النبي ﷺ بأن يأتي بكتاب من السماء ليقرؤوه.

أما قول الله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

فهو إخبار للنبي ﷺ أنه لن يؤمنوا بك حتى لو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس.

وتخبرنا كتب السيرة بوجود رجال مثل ورقة بن نوفل في مكة ممن قرأ كتب النصرانية[٣]، ومثله الشاعر أمية بن أبي الصلت الثقفي في الطائف، الذي تعكس أشعاره ثقافة دينية عالية[٤]، ويمكن الاستنتاج أنه كان يعرف القراءة والكتابة. وقد وُصِف كلٌّ من سفيان بن أمية بن عبد شمس الذي عاش في مكة قبل الإسلام، وغيلان بن سلمة بن مُعَتِّب الثقفي (من أهل الطائف)،الذي أدرك البعثة النبوية، بأنهما من أشراف المعلمين[٥]. وجاء في كتاب النبي ﷺ لثقيف عندما جاؤوا إلى المدينة مقرِّين بالإسلام في السنة التاسعة من الهجرة: «... وما كان لثقيف من دَيْن في صُحُفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم ...»[٦]؛ مما يدل على أنهم كانوا يوثِّقون مدايناتهم بالكتابة في الصحف.

وتذكر بعض المصادر أن القصائد السبع الشهيرة في الشعر العربي القديم، التي أطلق عليها (المعلقات)؛ لأنها كانت - كما يُرْوَى - مكتوبة بماء الذهب على قماش القباطي، وتعلق على جدار أو جدران الكعبة ليقرأها أهل مكة والحُجاج لإشهارها بين العرب في كل مكان[٧]. فإذا كان لا أحد يحسن القراءة، فما الفائدة من تعليقها، وكذلك إذا كان القراء قليلين جدًّا.

ويقال الشيء نفسه فيما يخص الصحيفة التي كتبتها بطون قريش بمكة عندما تحالفوا فيما بينهم ضد بني هاشم وبني المطلب بسبب حمايتهم للنبيﷺ ونصها:

«على أن لا يَنْكِحوا إليهم ولا يُنكِحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم». فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة[٨]. والغاية من ذلك إشهارها بين أهل مكة والوافدين إليها.

الإسلام والتعليم:

إن الدين الذي بعث الله به محمدًا ﷺ غيَّر وجه الحياة في الجزيرة العربية، كما غيَّر وجه الحياة في البلدان التي اعتنق أهلها الإسلام بعد ذلك، وشمل ذلك

التغيير فيما شمل عقليات الناس واهتماماتهم وغاياتهم وسلوكهم، فأتى الإسلام بأشياء جديدة، وأزال أشياء كانت قائمة أو عدَّلها.

القرآن الكريم:

أول ما أنزل الله من الوحي على الرسول الأمي ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[٩].

ففي هذه الآيات تكررت كلمة (اقرأ) مرتين، وكلمة (عَلَّمَ) مرتين، وذكرت القلم الذي هو آلة الكتابة، وهكذا تشمل هذه الآيات وسائل تحصيل العلم من القراءة والكتابة، وهي فوق ذلك تصرح بلفظ العلم.

ولا نستغرب حين نعلم أن السورة التي تلت سورة (اقرأ) في النزول هي سورة (القلم) التي بدايتها: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[١٠]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «... وكان أول ما نزل من القرآن بمكة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ثم القلم، ثم المزمل، ثم المدثر»[١١]. وهكذا نرى أن سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ تؤكد معنى السورة التي قبلها (سورة العلق)؛ فالله عز وجل يقسم بالقلم وما يسطِّره الكاتبون به لما فيه من كثرة الفوائد للإنسان: فيه تُدوَّن العلوم، وبه تكتب العقود، وبه تحدد آجال الديون، وبه تُسطَّر العهود، وبه تضبط الشروط، إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي لا تحقق إلا بواسطة القلم.

شُغِل المسلمون في الجزيرة العربية في عهد الرسول ﷺ ثم في عهد خلفائه بتفهم الدين الجديد من خلال دراسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم بنشر الإسلام وتوطيده في الجزيرة العربية أولاً، ثم في البلدان المجاورة، فالبعيدة بعد ذلك.

والباحث عندما يريد دراسة التعليم عند المسلمين في القرون الأولى يجد من الطبيعي أن العناية بتعليم كتاب الله وفهمه بما يحمل من عقيدة وأحكام

وتوجيهات وعظات يأتي في المقام الأول، فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على الرسول ﷺ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وليهديهم للتي هي أقوم.

وقد أنزله مفرقًا في مناسبات مختلفة؛ قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[١٢]. وكان الرسول ﷺ يتلو على الناس آياتهِ ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ.

وشغل المسلمون أنفسَهم بقراءة القرآن لاتِّباعِ ما جاء فيه من أوامرَ واجتناب ما جاء فيه من نواهٍ وتدَبُّر ما فيه من عِظاتٍ.

لقد قدس الإسلام العلم وأعطاه مكانة لا تُضاهَى في أي دين آخر، فكان النبيﷺ يجتمع مع أصحابه في مكة رجالاً ونساءً سرًّا في بيت بالصفا (دار الأرقم) يقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين[١٣]، كما كان يقوم بعض الصحابة بإقراء بعض، مثلما كان يفعل الصحابي خباب بن الأرت، حيث كان يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو يقرئهما القرآن من الرقاع[١٤].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ حريصين أشد الحرص على معرفة كتاب الله، مثلما كان يفعل عبدالله بن أم مكتوم الأعمى، حيث كان يأتي إلى الرسول ﷺ في مكة يستقرئه القرآن، ويلح عليه في ذلك[١٥]، فنزلت بسبب ذلك: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[١٦].

ثم هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وعند وصوله قُباء، في ضاحية المدينة، أقام بها مسجدًا ونزلت فيه الآية الكريمة: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[١٧]، ثم أقام مسجده في المدينة بعد ذلك، وأقيمت مساجد أخرى للقبائل للعبادة والتعلم. وشرع في نشر دعوته في المدينة أولاً ثم في قبائل العرب.

واعتناق دين الإسلام يستلزم معرفة كتاب الله، أو شيء من سوره، فكان كل داخل جديد في الإسلام يتعلم شيئًا من القرآن، ويكون حظه من التعلُّم حسب استعداده: إما قراءة وكتابة، وإما قراءة، وإما استظهارًا.

وكان الرسول ﷺ بعد الهجرة يُقْرِئُ أصحابَه القرآنَ، ويفقههم في الدين في مسجده بالمدينة وفي كل مكان يكون فيه معهم. وقد عَهِد إلى عدد من أصحابه بالإقراء والتعليم؛ حيث قال: «خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وأُبيٍّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة»[١٨]. ولم يقتصر الإقراء والتعليم على هؤلاء، بل كان هناك غيرهم؛ مثل أبي بكر[١٩] وزيد بن ثابت[٢٠] وآخرين.

وهناك إشارات تدل على أنه كان هناك نوع من التعليم الجماعي؛ منها: أنه كان فداء أسرى غزوة بدر من مشركي قريش أربعين أوقية [الأوقية = ٤٠ درهمًا] للواحد منهم، فمن لم يستطع دفْع هذا المبلغ علَّم عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم[٢١].

وكانت معرفةُ القرآنِ وسننِ الإسلام من أهم المؤهلات التي يختار الرسول ﷺ على أساسِها أصحابَه للمسؤوليات المهمة، فقد أمَّرَ عثمان بن أبي العاص الثقفي على وفد قومه من ثقيف رغم أنه كان أصغرهم سنًّا. وكان عثمان يأتي الرسول ﷺ عندما ينام أصحابه وقت الهاجرة يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن، فإن وجد الرسول ﷺ نائمًا ذهب لأبي بكر أو أُبيٍّ بن كعب ليستقرئهما[٢٢]. كذلك أمَّرَ فروة بن مُسَيك المُرادي على قبائل مُرَاد وزُبَيْد ومَذحِج اليمانية لتَعَلُّمِه القرآن وفرائض الإسلام[٢٣]. وفضَّل الرسول ﷺ أشجَّ عبدالقيس، وهذه شهرته، أما اسمه فهو (المنذر بن عمرو العبدي)، على وفد قومه من أهل البحرين في الجائزة لتفوُّقه عليهم بمعرفة القرآن والفقه[٢٤]. وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة، وأصله من فارس، يؤم المهاجرين في طريق هجرتهم إلى المدينة وفي المدينة؛ لأنه كان أقرأهم للقرآن، وإنَّ فيهم لعمر بن الخطاب[٢٥].

ولم يكن تفضيل قرَّاء القرآن مقصورًا على الأحياء فحسب، بل إن أموات القراء يفضَّلون على غيرهم؛ فبعد معركة أحد (سنة٣هـ) جاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ وقد كثر القتلى، فقالوا: «يا رسول الله، أصابنا قَرْحٌ وجَهْدٌ، فكيف تأمر؟ فقال: احفِروا وأوسِعوا، واجعلوا الاثنين والثلاثة في القبر. قالوا: فأيهم نُقَدِّم؟ قال: أكثرهم قرآنًا»[٢٦].

وكان تعلم القرآن في العهد النبوي يتم بصورة فردية أو بصورة جماعية، وقد سبقت الإشارة إلى أن عثمان بن أبي العاص الثقفي كان يأتي إلى الرسول ﷺ وقت الهاجرة في خِلْسة من وفد ثقيف ليستقرئه القرآن، ويُروى عن الصحابي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه تعلم بعض سور القرآن من رسول الله ﷺ منفردًا؛ إذ يقول: «فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد»[٢٧].

ويقول الصحابي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه في أصحاب الصُّفَّة: «جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين... وقارئٌ يقرأ علينا، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم رسول الله ﷺ، ثم قال: ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله، إنه كان قارئ يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله...»[٢٨]. وقال الصحابي عبادة بن الصامت: «علمتُ ناسًا من أهل الصفة الكتابة والقرآن...»[٢٩].

وطلب أحد زعماء قبيلة بني عامر، وهو عامر بن مالك أبو البراء، من النبيﷺ أن يبعث نفرًا من أصحابه لدعوة بني عامر إلى الدخول في دين الله، فبعث رسول الله ﷺ في نهاية السنة الثالثة من الهجرة أربعين من أصحابه من شباب الأنصار ممن يحسنون القراءة والكتابة ويسمَّون (القراء)، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي الأنصاري، وكتب معهم كتابًا لعامر بن الطفيل العامري زعيم بني عامر، وعندما وصلوا إلى بئر معونة، وهي تقع بين بلاد بني سُليم وبلاد بني عامر، استصرخ عليهم عامر بن الطفيل بني عامر لمهاجمتهم، فأبوا وقالوا: لن نَخْفِر جوار أبي البراء، فاستعان عامر بن الطفيل ببني سُلَيم، فهجموا عليهم وقتلوهم[٣٠].

وعندما جاء الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية إلى الرسول ﷺ مُسْلِمًا غَيَّر الرسول ﷺ اسمه إلى عبدالله، وكان الحكم مجيدًا للقراءة والكتابة، فعهد إليه الرسول ﷺ بتعليم الناس في المدينة الكتابة[٣١].

ويبدو أنها أقيمت بعض المدارس، وإن كانت لفظة (المدرسة) لم تستخدم في ذلك العهد، نستدل على ذلك من أسمائها؛ ففي سياق خبر هجرة الصحابي الضرير عبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنه تقول الرواية: «وقدم المدينة مهاجرًا... فنزل دار القرَّاء، وهي دار مخرمة بن نوفل ...»[٣٢]. وكان ابن أم مكتوم ومصعب ابن عمير هاجرا إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى، أي قبل هجرة النبي ﷺ والمسلمين بسنة، فجعلا يُقرئان المسلمين في المدينة القرآن[٣٣]. ويبدو أن دارهما اكتسبت اسم (دار القُرَّاء)، ومثل ذلك الرواية التي تقول: «... وبقية دار عبدالله ابن مسعود التي يقال لها دار القراء»[٣٤].

من هذه الإشارات نستطيع الاستنتاجَ بأنه كان هناك تعليم جماعي بجانب التعليم الانفرادي، ونستند في ذلك على وجود ذلك العدد الكبير من قراء الصحابة الذين تجاوز عددهم المئات، إن لم يكن الآلاف؛ يتجلى ذلك من نشاطِهم في نشر الإسلام، ومن هلاك بعضهم في حروب الإسلام، من ذلك استشهاد الكثير من القراء في حرب الردة باليمامة، مما دعا الخليفة أبا بكر أن يسارع إلى جمع القرآن خوفًا على ضياع بعض آياته نتيجة لموت الحفاظ.

وقد كان للوحي كَتَبَةٌ متخصصون يكتبون الوحي في حال نزوله على النبي ﷺ، كما كان هناك كتَّاب يكتبون مراسلاتِ النبي ﷺ وعقودَه ومواثيقَه وإقطاعاتِه، ومنهم من كان يكتب بين الناس العقودَ والمداينات.

وقام رسول الله ﷺ بنشر الإسلام بين أهل البلدان وبين القبائل؛ من ذلك أنه بعث الصحابي عمرو بن حزم الأنصاري مع وفد أهل نجران الذين جاؤوا إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم، وعهد إليه أن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ويأخذ منهم صدقاتهم[٣٥]. وقد وفد على النبي ﷺ، من ضمن وفد بني حنيفة، الرَّجَّال

ابن عُنْقُوَة الحنفي مع وفد قومه بني حنيفة، فقرأ القرآن، وبعثه النبي ﷺ معلمًا لأهل اليمامة، لكنه فُتِن في ردة مسيلمة واشترك معه في ردته(٣٦).

وبعد وفاة النبي ﷺ حرص خلفاؤه على تعليم المسلمين القرآن بالدرجة الأولى عناية كبيرة، وذلك حتى يَفْقَهوا دينهم، وشملت عنايتهم الحاضرة والبادية على حد سواء، من ذلك أن الخليفة أبا بكر عندما نجح المسلمون بإلحاق الهزائم بالقبائل المرتدة أخذ عليهم عهودًا ومواثيق مثلما أخذ على قبائل بني أسد وغطفان، وأحدها: «عليكم عهد الله وميثاقه أن تقوموا بالقرآن آناء الليل والنهار، وتُعلموه أولادكم ونساءكم... قالوا: نعم...»(٣٧).

وسار على النهج نفسه الخليفة عمر بن الخطاب، فقام بإرسال المعلمين إلى الحاضرة والبادية، وممن أرسلهم إلى البادية أبو سفيان الفهري، الذي أرسله إلى بني نبهان من قبيلة طي(٣٨). وسار على سياسته بعض الخلفاء من بعده، ومنهم الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز، الذي بعث معلمَيْن؛ هما يزيد بن أبي مالك الدمشقي، والحارث بن يمجد الأشعري، يفقهان الناس في البدو(٣٩).

وبعض العلماء سعوا لتعليم أهل البادية احتسابًا؛ فقد ذكر عُقيل بن خالد: «أن ابن شهاب كان يخرج إلى الأعراب يفقههم، فجاء أعرابي وقد نفد ما بيده، فمد الزهري يده إلى عمامتي فأخذها فأعطاه إياها، وقال: يا عُقيل، أعطيك خيرًا منها»(٤٠). ويظهر أن الزهري كان يستخدم سياسة الترغيب مع من يعلمهم، وكان يستعين بطلابه في تعليمه.

وعندما امتد الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين إلى البلدان المجاورة عن طريق الفتح والدعوة، أنشأ المسلمون مدنًا جديدة إضافة إلى المدن القديمة القائمة واستقروا بها. وتقتضي رسالة الإسلام تعليمَ المسلمين من العرب ومن أهل البلاد المفتوحة القرآنَ الكريم والفقه في الدين، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب الصحابيَّ عبدَالله بن مسعود إلى الكوفة ليقوم بتعليم المسلمين، وتعلَّم على يديه طوائفُ من الرجال كان بعضُهم من أشهرِ علماء

التابعين، وكانوا يُمَيَّزُون عن غيرهم بـ«أصحاب عبدالله». كما أرسل الخليفة عمر إلى البصرة أبا موسى الأشعري واليًا ومعلمًا، وقام بدور مماثل لدور ابن مسعود بالكوفة.

أما الشام فأرسل إليها عبادةَ بن الصامت ومعاذَ بن جبل وأبا الدرداء وغيرَهم معلمين، وتفرقوا في مدنه الرئيسة، وكان الصحابيُّ عبدُالله بنُ عمرو ابن العاص مع آخرين ينشرون العلمَ في مصر، وكان الإقبالُ على حلقاتِ العلمِ في كل هذه البلدان كبيرًا جدًّا.

مؤسسات التعليم:

من الطبيعي أن النشاط العلمي في المساجد الذي بدأ بمسجد رسول الله ﷺ بحلقاته العلمية وكثرة العلماء، لا يضاهيه مكان آخر في القرن الأول الهجري، واستمرت الحلقات العلمية في المساجد، التي موضوعها تدارُس القرآن الكريم وتجويدُه وتفسيرُه، ودراسة العقيدة والحديث واللغة والنحو وغيرها إلى العصر الحديث. والحلقات معاهد علمية مفتوحة ومتيسرة لكل راغب في الاستزادة، ومتى شاء الدارس يسأل ما أشكل عليه، ويتعلم ما يرغب فيه، ويشارك في المناقشات العلمية، وكم خرَّجتْ هذه الحلقات من علماءَ ومفسرين وأدباء.

الكُتَّاب:

لكن المرحلة الأولى للتعليم التي تُعنى بتعليم الصبيان، فيَتِم ذلك في (الكُتَّاب)، ويسمى أيضا (المَكْتَب). ويشير ابن قتيبة إلى وجود الكُتَّاب في مكة قبل الإسلام، في سياقِ خبرٍ مفادُه أن صَبيةً اسمها ظُلَمَة كانت في الكُتَّاب، وكانت تضرب دُوي الصبيان وأقلامهم(٤١).

وكان زياد بن أبي سفيان (أو زياد بن أبيه) هو الكاتب في جيش القادسية، سنة ١٤هـ(٤٢)، وسِنُّه إذ ذاك ١٤أو ١٥ سنة؛ مما يقود إلى الاستنتاج أن زيادًا تعلم القراءة والكتابة في كُتَّاب بالطائف يعود تاريخه إلى ما قبل الإسلام.

أما في العهد النبوي، فلا نملك دليلاً حاسمًا على وجود كُتَّاب للصبيان سوى أثر يمكن أن يفهم منه أنه موجه للمعلمين ومنهم معلمو الصبيان، ونصه: «أيَّما مؤدب وَلي ثلاثة صبية من هذه الأمة، فلم يعلِّمهم بالسَّوية، فقيرهم مع غنيهم، وغنيهم مع فقيرهم، حُشِر يوم القيامة مع الخائنين»[٤٣]. على أننا نظن أنه إذا كانت هناك كتاتيبُ قبل الإسلام، فلا بد أنها استمرت في تأدية وظائفها في العهد النبوي، خاصة في مكة والمدينة والطائف.

على أن الصورة تبدو في غاية الوضوح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد أمر ببناء المكاتب وعيَّن المعلمين لتعليم الصبيان وتأديبهم، وخصص لهم مخصصات مالية، وكذلك للمتعلمين، وخصص رواتب لثلاثة معلمين، لكل واحد منهم خمسة عشر درهمًا كل شهر[٤٤]. ومن المحتمل أن كل واحد من هؤلاء له كُتَّابه الخاص.

ونذكر في هذا السياق قصة ابن شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت، واسمه عبدالرحمن، وكان في الكُتَّاب، فتأخر مرة عن الذهاب إلى الكُتاب، فقال له معلمه: أين كنتَ؟ وأراد أن يضربه، فقال عبدالرحمن:

اللهُ يعلمُ أنِّي كنتُ مشتغلا　　　في دارِ حسانَ أصطادُ اليعاسيبا[٤٥]

وفي خلافة عمر بن الخطاب استقدم الصحابي سعد بن أبي وقاص معلمًا نصرانيًّا من أهل الحيرة اسمه جُفَيْنة ليعلم أولاد المسلمين القراءة والكتابة[٤٦].

ويُذكر أن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها (واسمها هند بنت أمية بن المغيرة المخزومي) المتوفاة سنة ٦١هـ/٦٨٠م بعثت إلى معلم الكُتَّاب: ابعث إليَّ غلمانًا ينفشون صوفًا، ولا تبعث إليّ حرًّا[٤٧].

وتؤكد هذه المعلومة أن التعليم متاح لجميع الصبيان. وأتوسع قليلاً لأوضح أن الصبيان غيرَ الأحرارِ في الكُتَّاب هم نتيجة للفتوحات الإسلامية للبلدان التي لم تقبل دين الإسلام، ولم تقبل بدفع الجزية؛ مثل بلدة عين التمر ومَيْسان في العراق. والواقع أن وضع هؤلاء الصبيان كان أقربَ إلى التبني منه إلى الاسترقاق،

ومن هؤلاء يسار جد مؤرخ السيرة محمد بن إسحاق، ونُصَيْر والد القائد فاتح الأندلس موسى بن نُصير، وسِيرين والد الإمام محمد بن سيرين[٤٨]، ويسار والد الإمام الحسن البصري، وغيرهم كثير.

ويقول عثمان بن عبدالله[٤٩]: رأيت الصحابة: أبا أُسيد الساعدي وأبا هريرة وأبا قتادة يمرون بنا ونحن في الكُتَّاب، فنجد منهم ريح العبير، وهو الخَلوق[٥٠].

ويقول محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ/٨٦٨م): «رأيت أبا سلمة بن عبدالرحمن [ت٩٤هـ/٧١٣م] يأخذ بيد الصبي من الكُتاب، فيذهب به إلى البيت، فيملي عليه الحديث يكتب له»[٥١].

أما مبنى الكُتاب، فكان غرفة صغيرة واسعة البناء يجلس فيها الصبيان على الحصُر (جمع حصير)، أو على جلود الغنم، ويتصدر فيها المعلم على مصطبة مرتفعة يشرف منها على الصبيان.

وكان المعلم يدرِّس القرآن الكريم بطريقة التلقين، وإذا حفظ أحدهم درسه تلاه أمام المعلم، ثم ينصرف للكتابة. وفي ناحية من الكُتاب جماعة من الصبيان في أيديهم ألواحهم يكررون كتابة ما كتبه لهم معلمهم من القرآن الكريم، وهم الذين لا يتمكنون من حفظ القرآن بطريقة التلقين. وفي ناحية أخرى جماعة من التلاميذ قد أقبلوا على كتاباتهم، يكتبون في ألواحهم ما عيَّنه لهم المعلم، وإذا أنجز الصبي كتابته عرضها على المعلم، وبعد أن يرشده إلى مواضع الخطأ والضعف يأمره بمسحها، فيذهب الصبي إلى إناء الماء (الإجَّانة) في الكُتاب يغسل لوحه فيها.

ولم تكن الكتب معلومة في ذلك الوقت وحتى القرآن الكريم، فلا يملك أحد من التلاميذ نسخة كاملة منه.

وكان الخليفة عمر يتفقد المكاتب، ويشرف على التعليم، ويرشد المعلمين. ومن إرشاداته:

١- أن يستعملوا التشويق في تعليم الصبيان، ويتجنبوا العنف والشدة، متبعًا في ذلك قول الرسول ﷺ: «علموا ولا تعنفوا، فإن المعلِّم خير من المعنِّف»، وقوله: «إن الله لم يبعثني معنِّتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا». [رواه مسلم].

٢- أمر المعلمين أن يقسموا الطلاب إلى جماعات حسب ذكائهم وقابلياتهم.

٣- أن يعلموا القرآن بلغة قريش، [المقصود بها لهجة قريش]. وهي اللغة التي أنزل بها القرآن[٥٢].

أما أوقات الدوام في الكُتاب، فتبدأ من بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالي، ثم يذهب الصبيان إلى منازلهم ليأخذوا قسطًا من الراحة، ويتناولون غداءهم ثم يعودون إلى الكُتاب بعد صلاة الظهر، ويتعلمون إلى حين صلاة العصر ثم ينصرفون إلى منازلهم[٥٣].

وأما العُطَل، فكانت في أيام الجمع وفي عيدي الفطر والأضحى، ولما عاد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الشام بعد تسلُّمه مفاتيح بيت المقدس سنة ١٦هـ/٦٣٧م بعد فتحها، خرج أهل المدينة لاستقباله، وخرج معهم صبيان الكتاتيب، وتلَقَّوْه على مسيرة يوم واحد، وكان ذلك يوم الخميس، فباتوا ثم رجعوا معه، وتعب الصغار في ذهابهم وإيابهم، فأمر الخليفة المعلمين أن يعطِّلوا الكتاتيب يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، وكانت هذه سنة في صدر الإسلام[٥٤].

وبعد توسع دولة الإسلام وانتقال الحكم من المدينة المنورة إلى دمشق، وتحسن الأحوال المعيشية في كل الأمصار الإسلامية، فانتشرت الكتاتيب بشكل واسع، وقد ذكر عمر بن شبة في كتابه **تاريخ المدينة** العديد من الكتاتيب في المدينة محددًا مواقعها، وذلك في القرنين الأول والثاني الهجريين؛ ومنها: كُتَّاب أبي ديان[٥٥]، وكُتَاب عروة[٥٦]، وكُتَّاب ابن زيان[٥٧]، وكُتَّاب ابن الخصيب[٥٨]، وكُتَّاب إسحاق الأعرج[٥٩]، ودار الكتبة[٦٠]، وكُتَّاب النصر[٦١].

وكان يوسف الثقفي وابنه الحجاج (كُلَيب) معلمَيْ كُتَّاب بالطائف، ومما قال الشاعر مالك بن الرَّيِّب التميمي (ت٥٨هـ) في هجاء الحجاج:

فلولا بنو مروانَ كان ابنُ يوسفٍ ... كما كان عبدًا من عبيدِ إيادِ
زمانَ هو العبدُ المُقِرُّ بذُلِّه ... يراوحُ غِلمان القُرى ويُغادي

وقال آخر فيه:

أيَنسَى كليبٌ زمانَ الهُزالِ ... وتعليمَه سُورةَ الكوثرِ
رغيفٌ له فَلْكَةٌ ما تُرَى ... وآخرُ كالقمرِ الأزهرِ

يريد أن خبز المعلم مختلف[٦٢].

والمرجَّح أن المدن الإسلامية الأخرى كان فيها كتاتيبُ على قدر حاجتها، وطبقًا للمستوى الاقتصادي للناس فيها؛ لأنها في معظمها مؤسسات تعليمية خاصة، وقليل منها ينفق عليه من بيت مال المسلمين، ويمكن أن يكون بعض المعلمين يعلِّم في الكُتَّاب احتسابًا، فلا يأخذ على تعليمه أجرًا. وممن نظن أنه كان كذلك: الإمام أبو عمرو عبدالرحمن الأوزاعي (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م)؛ فقد قدم من الشام إلى اليمامة في مطلع شبابه بوصفه جنديًا في الحامية الأموية التي تساند الوالي الأموي في اليمامة، ولكنه تفاعل مع أهلها فأخذ العلم عن يحيى ابن أبي كثير الطائي، مولاهم اليمامي (ت١٣٢هـ/ ٧٥٠م) وغيره، وأسس كُتَّابًا لتعليم الصبيان، ثم عاد إلى الشام واستقر في بيروت[٦٣].

وظهرت في العهد الأموي وظيفة (المؤدب)، ويمتهنها أشراف القوم ومَن دونهم من العلماء الذين يتمتعون بخلق عالٍ، فيُعهد إلى الواحد منهم بتعليم أولاد الخلفاء والأمراء والقادة وكبار الأثرياء، وتثقيفهم وتعويدهم على السلوك القويم والآداب الراقية. وممن اشتغل مؤدبًا أحد وجوه التابعين، وهو إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي، كان يؤدب أولاد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، ووَلاَّه فيما بعد الخليفة عمر بن عبدالعزيز منصب الوالي على أفريقية، أي بلاد المغرب الأدنى. ومنهم كذلك من التابعين العالم المكي

عطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ/٧٣٢م)، والعالم الشامي قَبيصة بن ذؤيب الخزاعي(ت٨٦هـ/٥٠٧م)، وعبدالحميد الكاتب (ت١٣٢هـ/٧٥٠م)، كاتب بني أمية، والعالم الكوفي عامر الشعبي[٦٤] (ت ١٠٠هـ/ ٧٢٣م).

أما منهاج الدراسة في الكتاتيب في العصر الأموي، فقد استمر على ما كان عليه في العصر الراشدي: تعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين الحنيف، والقراءة والكتابة والشعر. وكان الخلفاء ورجال الدولة يتوسعون في تعليم أولادهم أكثر من هذا، نجد ذلك في وصاياهم لمؤدبي أولادهم؛ فالخليفة معاوية بن أبي سفيان أوصى دَغْفلة بن حنظلة السدوسي الشيباني (ت٦٠هـ/٦٧٩م) مؤدبَ ولده يزيد بالآتي: «علمه العربية والأنساب والنجوم». ويمكن أن تكون هذه الحقول المعرفية التي يجيدها ابن حنظلة أكثر من غيرها. وعهد إلى مؤدب آخر أن يعلم يزيدَ علومًا أخرى.

أما وصية عتبة بن أبي سفيان (ت٤٦هـ/٦٦٦م) لمؤدب ولده عبدالصمد فهي: «ليكن إصلاحُك بَنِيَّ إصلاحَك نفسك، فإن عيوبَهم معقودةٌ بعيبِك، فالحَسَنُ عندهم ما استحسنتَ، والقبيحُ ما استقبحتَ، وعَلِّمْهم سِيَر الحكماء، وأخلاقَ الأدباء، وتهدَّدْهم بي، وأدِّبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجَل بالدواء حتى يعرف الداء...»[٦٥].

ومن الوصايا الجميلة وصية الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان لمؤدب أولاده، وهو من بني زهرة القرشيين، وهي: «عَلِّمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، ورَوِّهم الشعرَ يَشْجُعُوا ويَنْجُدوا، وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس رِعَةً وأحسنهم أدبًا، وجَنِّبْهم السّفلة والخدم...، ووَقِّرهم في العلانية، وذلِّلهم في السر، واضربهم على الكذب، إن الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجَنِّبْهم شَتْم أعراض الرجال، فإن الحرَّ لا يجد من عرضه عِوَضاً ...»[٦٦].

الكُتَّاب في العهد العباسي:

كثُرت الكتاتيب في بلاد المسلمين في العهد العباسي، وتنافس أهل الخير في تشييدها، وأوقفوا عليها من الأوقاف ما يكفي لإدامتها، وعلى من يُعَلِّم ويَتَعَلم فيها، ومثل هذه الكتاتيب كانت تسمى (مكاتب السبيل)؛ إذ هي متاحة لكل من يرغب في إلحاق ابنه ليتعلم بها.

وأول من بنى كتاتيبَ خاصة للأيتام هو يحيى بن خالد البرمكي[٦٧] (ت١٩٠هـ/٨٠٦م) وزير الخليفة هارون الرشيد، ومن أعظم الذين عُنوا بتشييد الكتاتيب السلطان نور الدين محمود زنكي (٥٦٩هـ/١١١٨م)؛ فإنه بنى في بلاده مكاتب خاصة للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات والجرايات الوافرة[٦٨].

أما مدة التعليم في الكتاب، فتتوقف على ذكاء الصبي وإقباله على الدرس؛ فالإمام الشافعي رضي الله عنه أنهى مرحلة الكُتاب وهو في العاشرة، وكذلك الإمام البخاري رضي الله عنه، وإن كانا يُعدَّان استثناءً لنبوغهما، إلا أنها السن التي تبدأ معها إنهاء مرحلة الكتاب، وقد تمتد بعد ذلك لسنوات قليلة وفقًا لقدرات المتعلم وظروفه الخاصة.

ومن الطريف ما ذكره الإمام ابن حزم الأندلسي أن التعليم من صناعة النساء، ويقصد التعليم الأوَّلِي، فيقول في كتابه **طوق الحمامة**: «لأني رُبِّيتُ في حُجُورهن، ونشأتُ بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب،... وهُنَّ علمنني القرآن، وروَّينني كثيرًا من الأشعار، ودرَّبنني في الخط»[٦٩].

خلاصة ما تقدم أن التعليم خلال القرون الثلاثة الأولى كان يتم على مرحلتين؛ الأولى: مرحلة التعليم الأوَّلي وهي الكتاتيب، والتي يبدأ بها الصبي ويستمر حتى يقترب من مرحلة البلوغ. والمرحلة الثانية: هي مرحلة الحلقات، وأكثرها يتم في المساجد وبعضها يكون في البيوت وأماكن أخرى، وهذه تبدأ من

حيث تنتهي مرحلة الكتاتيب، وتستمر حتى يحصل فيها الدارس على إجازات من الشيوخ الذين درس عليهم. والحلقات متنوعة من حيث العلوم الإسلامية والعربية التي كانت تقدمها.

أما المؤدبون، فكان طلابهم من الخاصة أو خاصة الخاصة؛ أي أبناء الملوك والأمراء ومَن في مستواهم. وهؤلاء كان ذووهم يريدون تسليحهم بالعلم كأحد الأدوات التي تعينهم على أداء وظائفهم في الحكم وإدارة الدولة، إذًا فهم لم يدرسوا العلم للعلم أو ليتخذوا منه مهنة.

على أنه من المهم جدًّا أن نشير أنه منذ مطلع القرن الثالث الهجري وبداية ترجمة الكتب عن اليونانية والفارسية والهندية وغيرها في فروع المعرفة المختلفة بدأت تنشأ حلقات تعليمية متخصصة في هذه العلوم؛ من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وفلسفة وغيرها. وهذه كانت في دار الحكمة وما شابهها، أو في منازل العلماء.

ويجب التنويه أن هذه المرحلة الزمنية ونُظم تعليمها البسيطة أنجبت خيرة العلماء المسلمين على مر العصور، منهم علماء التابعين، ومن طلابهم أئمة المذاهب السُّنية: أبو حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وابن إسحاق والواقدي وأحمد بن حنبل والخليل بن أحمد وسيبويه وابن قتيبة والبخاري ومسلم بن الحجاج وأبو داود وابن ماجة والطبري واليعقوبي، وغيرهم كثير.

احتاج دارسو الفلسفة والعلوم التطبيقية من المسلمين وقتًا ليستوعبوا الكتب المترجمة من تراث الأمم الأخرى، ومن ثَم التأليف في هذه العلوم. والبدايات اللافتة للاهتمام تتمثل بعالِم الكيمياء الشهير جابر بن حيان بن عبدالله الأزدي، المتوفى في حدود ١٩٧هـ/٨١٣م، وعالم الرياضيات والفلك محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى عام ٢٣٢هـ/٨٥٠م، الذي عاصر المأمون، وألَّف - بناءً على توجيهه - كتاب **الجبر والمقابلة**. على أن غزارة التأليف في هذه الحقول العلمية كانت في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وبشكل أقل في القرن السادس الهجري.

دور الحكمة:

نتيجة لاحتكاك المسلمين وتفاعلهم مع سكان المناطق المفتوحة، ومنهم السِّرْيان في الشام وشمال العراق، وهؤلاء يجيدون اللغة العربية، وبعضهم يجيد اللغة اليونانية، وقد سبق أن ترجموا جانبًا من التراث اليوناني إلى لغتهم، فشجعهم بعض أوائل الخلفاء العباسيين على أن يقوموا بترجمة بعض كتب التراث اليوناني إلى اللغة العربية، فكان العمل في المراحل الأولى مبادرات فردية ثم تطورت إلى عمل مؤسسي، فأُنشئت دار الحكمة في بغداد في عهد الخليفة الرشيد، ثم تطورت في عهد الخليفة المأمون لتحتضن هذه المشاريع. ويضاف إلى الترجمة التعليم وتوفير مصادر التعلُّم في أصولها والمترجمة منها، وكان لهذا العمل نتائج جيدة من حيث الاهتمام بفروع العلوم التطبيقية ونبوغ العديد من العلماء المسلمين؛ مثل يعقوب بن إسحاق الكندي (ت٢٥٦هـ/٨٧٣م)، وأبي بكر محمد بن يحيى الرازي (ت٣١١هـ/٩٢٣م)، وأبي علي الحسين بن عبدالله ابن سيناء (ت٤٢٧هـ/١٠٣٧م)، والحسن بن الهيثم (ت٤٣٠هـ/١٠٤٠م)... والقائمة تطول من الأسماء.

واقتدى حكام إفريقية (تونس) الأغالبة بالعباسيين، فأنشؤوا بيت الحكمة في رقادة بالقرب من القيروان، وفتحوها لمن يريد الاستفادة منها. والظاهر أن الذي أسسها هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن أغلب، الذي تولى إمارة الأغالبة عام ٢٦١هـ/٨٧٥م، واستمرت تمارس نشاطها حتى نهاية إمارة الأغالبة في عهد الحاكم زيادة الله الأغلبي ٢٩٦هـ/٩٠٩م[٧٠].

كما أسس الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (ت٤١١هـ/١٠٢١م) بالقاهرة دار الحكمة (دار العلم) في سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م، وجمع فيها أنواع الكتب في الآداب والفنون والعلوم، وأراد أن يكسب بها في أول الأمر حماس أهل السنة[٧١]، وترك وصية مفصلة لأوقافه، ومنها «دار الحكمة»[٧٢].

وأنشأ آل عمار حكام طرابلس الشام (٤٢٧ -٤٨٧هـ) دار حكمة جليلة يشتغل فيها عدد كبير من العلماء والوراقين[٧٣]، وكانت نهايتها أن أحرقها الصليبيون إبَّان احتلالهم لطرابلس وتركوها كومة رماد.

وأنشأ الساميون خزانة كتب ببخارى، وأذن السلطان منصور بن نوح الساماني (ت٣٩٠هـ/١٠٠٠م) للرئيس أبي علي الحسن بن سيناء (ت٤٢٧هـ/١٠٣٧م) بالاطلاع على ما فيها من كنوز المعرفة، فوصفها ابن سينا بأنها «ذات بيوت (قاعات) كثيرة، في كل بيت صناديق منضدة بعضها على بعض... فطالعتُ فهرستَ كتب الأوائل... ورأيتُ من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضًا من بعد. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها...»[٧٤].

وكان إنشاء المؤسسات العلمية وجهًا من بذل المال في أوجه الخير، فكثير من العلماء والأثرياء أسسوا مؤسسات علمية لتسهل على الراغبين في العلم ارتيادها والنَّهَل من مَعين مصادرها مع توفر مرافق الخدمة المتنوعة لمرتاديها، منها «دار علم جعفر بن حمدان الموصلي» (ت٣٢٣هـ/٩٣٤م) في الموصل، قال عنها ياقوت: «كان ابن حمدان من أهل الرياسات في الموصل... وكانت له ببلده (دار عِلْم) وقفًا على كل طالب علم، تفتح كل يوم، وقد جمع فيها خزانة كتب من جميع العلوم، ووفر فيها أدوات الكتابة ولوازمها، لا يُمْنَعُ أحدٌ من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان معسرًا، أنفق عليه من ماله»[٧٥].

وفي سنة ٣٨١هـ أسس أبو نصر سابور بن أردشير (ت ٤١٦هـ/١٠٢٥م)، وزيرالسلطان البويهي بهاء الدولة دارَ عِلْم في الكَرْخ في بغداد، وأوقف عليها الوقوف، وذكروا أن عدد كتبها كان يزيد عن عشرة آلاف مجلد. وكانت مقصدًا للعلماء. وممن زارها واجتمع بعلمائها الشاعر أبو العلاء المعري، فإنه آثر الإقامة بها، وذكرها في كتابه **رسالة الغفران**[٧٦]، ومما يجدر ذكره أنه سمع حمامة تصيح بهذه الدار، فقال:

وغَنَّتْ لنا في دارِ سابورَ قَينةٌ　　　من الوُرْقِ مِطْرابُ الأصائلِ مِبْهالُ

إلى آخر القصيدة.

وقد أحرق السلطان طغرل بيك بن سلجوق(٧٧) هذه المكتبة عندما تغلبوا على البويهيين ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م.

وأنشئت دورٌ خاصةٌ للقرآن، ودورٌ خاصةٌ للحديث في العديد من المدن الإسلامية.

المدارس:

وردت لفظة (درس) وبعض اشتقاقاتها في خمسة مواضع من القرآن الكريم(٧٨)، إلا أنها لم توظَّف كمصطلح لمكان التعليم أو يسمى التعليم (دراسة). وقد استخدمها الشاعر الكوفي دِعْبِل الخزاعي(٧٩) (قتل سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م) في سياقها التعليمي في قصيدته التي يقول فيها:

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ　　　ومنزلُ وحيٍ مقفرُ العَرَصاتِ

وفي حدود ما نعلم أن أول مرة برز فيها اسم (مدرسة) كان قبل منتصف القرن الرابع الهجري؛ فقد وُصِف أبو الوليد حسان بن أحمد النيسابوري الشافعي (ت٣٤٩هـ/٩٦٠م) إمام أهل الحديث، بأنه كان أكثر العلماء لزومًا لمدرسته، ولا نعرف عن هذه المدرسة شيئًا(٨٠). وبُنِيت بنيسابور في نهاية القرن الرابع الهجري مدرسة للإمام محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الشافعي (ت٤٠٦هـ/١٠١٥م) أحيا الله بها في هذه البلد أنواعًا من العلوم(٨١). وذُكِر عددٌ من المدارس الأخرى التي أقامها الخيِّرون في مدن مثل بَيْهَق ونَيْسابور وبلدان شرقي الخلافة الإسلامية.

وتجدر الملاحظة أن جُلَّ من أنشأ هذه المدارس، إن لم يكونوا كلهم، هم من علماء الشافعية، وأنها كانت في شرقي الخلافة الإسلامية، خاصة نيسابور.

لم تكن هذه المدارس على مستوى واحد من حيث إمكاناتها أو مناهجها، ونتوقع أنها كانت متقاربة في علومها.

المدارس النظامية:

أنشأ نظام الملك[٨٢] وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان وابنه ملكشاه مدرستين في بغداد وفي نيسابور عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، وكان موقع نظامية بغداد على نهر دجلة، وتتكون من حجرات الدراسة التي تحيط بصحن المدرسة، وألحق بالمدرسة مكتبة ومطبخًا ومخازنَ ودورات مياه. وبنى حولها أسواقًا، وابتاع ضياعًا وحمَّامات ومخازن ودكاكين أوقفها عليها. وقد أنفق على بنائها مائتي ألف دينار.

كان من أهداف إنشائها إزالة آثار الأفكار التي خلفها البويهيون والفاطميون إبان حكمهم. وكان التعليم فيها يستند إلى المذهب السني وحسب قانون وقفها، نشر المذهب الشافعي. وكان نص الوقفية يؤكد أن كل من يعمل بالمدرسة يجب أن يكون شافعيَّ المذهب.

اغتال الإسماعيليون (الحشاشون) نظام الملك في ١٠ رمضان سنة ٤٨٥هـ/ ١٤/١٠/١٠٩٢م، وظلت مدارسه تعمل لعدد من السنوات، وسارت كثير من المدارس في العالم الإسلام على كثير من نهجها بعد ذلك. درَّس فيها مشاهير العلماء؛ مثل إمام الحرمين الجويني[٨٣] وحجة الإسلام الغزالي[٨٤] وغيرهم.

نتوقف عند هذا؛ لأن إنشاء المدارس استمر وتوسع في كل البلدان الإسلامية وعلى مدى التاريخ. ليس هذا فحسب، بل نشأ بجانب الحلقات في المساجد والمدارس عددٌ من المؤسسات العلمية، مثل الزوايا والخانقاهات والأربطة، سواء ما كان في الثغور (الجبهات الأمامية) أو في المدن مثل مكة المكرمة.

الهوامش:

(*) أصل هذا الموضوع محاضرة أُلقِيتْ في «أحدية المرحوم الدكتور راشد المبارك» مساء يوم الأحد ٢٤ شعبان ١٤٣٩هـ/٨ أبريل ٢٠١٨م.

(١) سورة الإسراء، آية ٩٣.

(٢) سورة الأنعام، آية ٧.

(٣) ابن هشام، عبدالملك، (ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ١/ ٢٦٠.

(٤) الجمحي، محمد بن سلاّم (ت٢٣١هـ/٨٤٥م)، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.، ١/ ٢٦٢ ؛ ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م، ١/ ٤٥٩-٤٦٠.

(٥) ابن حبيب، محمد (ت٢٤٥هـ/٨٥٩م)، **كتاب المحبر**، دار الآفاق، بيروت، د.ت.، ص٤٧٥ ؛ البلاذري، أحمد بن يحيى (توفي حوالي ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **فتوح البلدان**، تحقيق عبدالله الطباع وأخيه، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٦٦٠.

(٦) ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ/٨٣٩م)، **كتاب الأموال**، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٨٥.

(٧) خفاجي، محمد عبدالمنعم، **الشعر الجاهلي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.، ص٢٤٤، الجبوري، يحيى، **الشعر الجاهلي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص١٧٨.

(٨) ابن هشام، ١/ ٣٨٨.

(٩) سورة العلق، الآيات ١-٥.

(١٠) سورة القلم، آية ١.

(١١) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، **فتح القدير**، دار ابن كثير، دمشق،١٤١٤هـ، ٥/ ٢٦٦، وقارن: السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، **الإتقان في علوم القرآن**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١/ ١١٠ (عن جابر بن زيد) .

(١٢) سورة الإسراء، آية ١٠٦.

(١٣) ابن هشام، **السيرة**، ١/ ٣٤٥ -٣٤٦.

(١٤) المصدر السابق، ١/ ٣٦٣.

(١٥) المصدر السابق، ١/ ٣٦٣.

(١٦) سورة عبس، آية ١-٢.

(١٧) سورة التوبة، آية ١٠٨.

(١٨) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠هـ/٨٤٥م)، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، د.ت.، ٢/ ٣٥٤.

(١٩) ابن سعد، المصدر السابق، ٥/ ٥٠٨.

(٢٠) الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ٢/ ٤٢٧.

(٢١) أورد هذه الرواية كل من أبي عبيد، **كتاب الأموال**، ١١٦؛ وابن سعد، **الطبقات**،٢٢/٢ ؛ وأحمد ابن حنبل، **المسند** ٩٢/٤. ونقل رواية الإمام أحمدمؤرخون متأخرون. وقد بحثتُ عن هذه الرواية في مصادر السيرة النبوية الرئيسة المبكرة، وهي: الزهري، **المغازي** ص٦٥ -٦٦ ؛ وابن هشام، **السيرة**، ٣/٢ -٨، والواقدي، **المغازي**، ١٣٨/١ -١٤٤ فلم يذكرها أحد منهم.

(٢٢) ابن سعد، ٥٠٨/٥.

(٢٣) المصدر السابق، ٥٢٤/٥.

(٢٤) المصدر السابق، ٥٥٨/٥،٥٥٧.

(٢٥) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **أنساب الأشراف**، تحقيق محمد حميدالله، دار المعارف، مصر د.ت.، ٢٦٤/١ ؛ ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م)، **الاستيعاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٥٦٧/٢ (ترجمة ٨٨١).

(٢٦) ابن شبة، عمر (ت٢٦٢هـ/٨٧٦م)، **تاريخ المدينة**، تحقيق فهيم شلتوت، نشره السيد حبيب محمود، المدينة المنورة، د.ت.، ١٣١/١ ؛ البلاذري، **أنساب**، ٢٣٦/١

(٢٧) ابن سعد، ١٥١/٣.

(٢٨) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، **سنن أبي داود**، دار الحديث، حمص، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م، ٧٢/٤ (رقم الحديث ٣٦٦٦) .

(٢٩) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، **السنن**، ٧٠١/٣ (رقم الحديث ٣٤١٦) .

(٣٠) الواقدي، محمد بن عمر (٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **كتاب المغازي**، تحقيق مارسن جونز، عالم الكتب، بيروت،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٣٤٦/١ وما بعدها.؛ ابن سعد ٥١٤/٣، وروايته تجعل عددهم سبعين.

(٣١) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل، بيروت،١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٣٤٤/١.

(٣٢) ابن سعد، ٢٠٥/٤.

(٣٣) المصدر السابق، ٢٠٦/٤.

(٣٤) ابن النجار، محمد بن محمود (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، **تاريخ المدينة المنورة** (= **الدرة الثمينة** ...)، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار الزمان، المدينة المنورة، ١٤٢٢هـ، ص ٢٢٢.

(٣٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢٥٠/٤ ؛ الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.، ١٢٨/٣.

(٣٦) الطبري، ٢٨٢/٣.

(٣٧) الكلاعي، سليمان بن موسى (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م)، **تاريخ الردة**، اقتبسه خورشيد أحمد من كتاب **الاكتفاء** للكلاعي، المعهد الهندي للدراسات الإسلامية، ومؤسسة فيكاس للطباعية والنشر، نيودلهي، ١٩٨٢م، ص٤٩.

(٣٨) ابن حزم، علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، **جمهرة أنساب العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٠٤.

(٣٩) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)، **سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز**، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٩٢.

(٤٠) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٣٤٠/٥. وابن شهاب هو الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ت ١٢٤هـ/٧٤٢م.

(٤١) ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٤٥م)، كتاب **عيون الأخبار**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، ١٠٣/٤.

(٤٢) الطبري، ٤٨٩/٣، ٢٩/٤.

(٤٣) ابن سحنون، محمد (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، كتاب **آداب المعلمين**، تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس، دار الكتب الشرقية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص٨٤. ويبدو أن هذا ليس حديثًا، والغالب على الظن أنه أثر من كلام الصحابي أنس بن مالك، فنسب إلى النبي ﷺ.

(٤٤) بدران، عبدالقادر (ت١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، **تهذب تاريخ دمشق الكبير** لابن عساكر، دار المسيرة، بيروت،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٤١٥/٦.

(٤٥) ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، **الأخبار الموفقيات**، تحقيق سامي العاني، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٢٣٧ ؛ المبرد، محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ/٨٩٨م) **الكامل في اللغة والأدب**، مؤسسة المعارف، بيروت،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١١٣٥. واليعاسيب: واحدها يعسوب، وهو أمير النحل وذكرها.

(٤٦) ابن سعد، ٣٥٦/٣ ؛ الطبري، ٢٤٠/٤ ؛ محمد بن سحنون، **آداب المعلمين**، ص٤١.

(٤٧) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م)، **صحيح البخاري**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، كتاب الديات، ص١٣١٧.

(٤٨) **الطبري**، ٤١٥/٣،٣٧٧.

(٤٩) تحرف في المطبوع من **طبقات ابن سعد** إلى «عثمان بن عبيد الله». وهو عثمان بن عبدالله بن سُراقة القرشي العدوي، وأمه زينب بنت عمر بن الخطاب. قال المزي في **تهذيب الكمال** ٤١٣/١٩: «رأى أبا أسيد الساعدي، وأبا قَتَادَة الأَنْصارِيّ، وأبا هُرَيْرة». وأرَّخ وفاته سنة ١١٨هـ.

(٥٠) ابن سعد، ٥٥٨/٣. الصحابي أبو أُسيد مالك بن ربيعة الأنصاري توفي سنة ٤٠هـ، والصحابي أبو هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي توفي سنة ٥٩هـ، والصحابي أبو قتادة الحارث بن رِبْعِيٍّ الأنصاري توفي سنة ٥٤هـ.

(٥١) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م)، **تاريخ مدينة السلام**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ١٣/٢. وأبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف كان أحد فقهاء المدينة السبعة، والقاضي عليها من سنة ٤٨-٥٤هـ.

(٥٢) نقلاً عن الديوجي، سعيد، **التربية والتعليم في الإسلام**، مكتب التراث، الموصل، ص١٩.

(٥٣) الديوجي، ص٢٢، نقلاً عن كتاب **الخط العربي**، ص٦٤.

(٥٤) الديوجي، ص٢٢، نقلاً عن كتاب **الخط العربي**، ص٦٤.

(٥٥) ابن شبة، عمر (ت٢٦٢هـ/٧٨٦م)، **تاريخ المدينة**، ٢٣١/١.

(٥٦) المصدر السابق ، ١/١٣٠،٢٤٥.

(٥٧) المصدر السابق ، ٢٤٩/١.

(٥٨) المصدر السابق ، ٢٥١/١.

(٥٩) المصدر السابق ، ٢٥٣/١.

(٦٠) المصدر السابق ، ٢٥٤/١.

(٦١) المصدر السابق ، ٢٦٢/١.

(٦٢) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٥٤٨. الفلكة: استدارة.

(٦٣) ابن سعد، ٤٨٨/٧.

(٦٤) ابن قتيبة، **المعارف**، ص ٥٤٧-٥٤٨.

(٦٥) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ١٦٦/٢.

(٦٦) ابن منقذ، أسامة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)، **لباب الآداب**، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٣٠.

(٦٧) الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/٩٤٣م)، **الوزراء والكتاب**، تحقيق إبراهيم صالح، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٢٦٦.

(٦٨) أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ٤٨/١.

(٦٩) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، **طوق الحمامة**، تحقيق صلاح الدين قاسم، دار بوسلامة، تونس، ١٩٨٠، ص٧٧.

(٧٠) ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت،١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ٢٨٣/٧-٢٨٧؛ ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد (٦٩٥هـ/١٢٩٦م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ١١٦/١-١٢٤ ،ابن ميلاد، الحكيم أحمد، **تاريخ الطب العربي التونسي**، مطبعة الاتحاد التونسي للشغل، تونس، ١٤٠١هـ/١٩٨٠، ص٢٢١-٢٢٢.

(٧١) المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ٥٠٢/٢.

(٧٢) المسبحي، الأمير المختار محمد بن عبيد (٤٢٠هـ/١٠٢٩م)، **الجزء الأربعون من أخبار مصر**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٧٤.

(٧٣) علي، محمد كرد (ت ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م)، **خطط الشام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ٦٦/٦.

(٧٤) ابن أبي أُصَيبعة، أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.، ص٤٣٩؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.، ١٥٨/٢.

(٧٥) ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٩٩م)، **معجم الأدباء**، دار إحياء التراث،/ دار المستشرق، بيروت، د.ت.، ١٩٣/٧.

(٧٦) أبو العلاء المعري، أحمد بن سليمان (ت٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)، **رسالة الغفران**، تحقيق فوزي عطية، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، د. ت.، وأشار إلى (دار العلم) مرتين، ص٦٣، ١٣٦، وذكر في المرة الثانية أن توفيقَ السوداء كانت تخدم في دار العلم ببغداد، على زمان أبي منصور محمد بن علي الخازن، وكانت تُخْرِج الكتبَ إلى النساخ.

(٧٧) هو ثالث الحكام السلاجقة على إيران والمؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة، ودخل بغداد عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وهو أول من حمل الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة، الذي أصبح علمًا لتركيا فيما بعد. توفي في الري عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وخلفه في الحكم ابن أخيه ألب أرسلان، الذي اتخذ نظامَ الملك وزيرًا له.

(٧٨) الأنعام، آية ١٠٥ ﴿دَرَسْتَ﴾، الأعراف، ١٦٩ ﴿دَرَسُوا﴾، آل عمران، آية٧٩ ﴿تدْرُسُون﴾، القلم، آية٣٧ ﴿تدرسون﴾، الأنعام، آية ١٥٦ ﴿دِراسِتهم﴾.

(٧٩) ولد بالكوفة سنة ١٤٨هـ. واسمه محمد بن علي بن رزين، اشتهر بتشيعه لآل علي رضي الله عنه وهجائه اللاذع للخلفاء العباسيين، ودبر قتله القائد مالك بن طوق بطوس سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م بسبب هجائه له.

(٨٠) الإسنوي، جمال الدين عبدالرحيم (ت ٤٧٢هـ/١٠٧٩م)، **طبقات الشافعية**، تحقيق عبدالله الجبوري، دار العلوم، الرياض، ١٤٠١هـ،١٩٨١م، ٤٧٢/٢.

(٨١) المصدر السابق، ٢٦٧/٢.

(٨٢) هو أبو علي الحسين بن علي الطوسي، وتلقب بنظام الملك. كان لنظام الملك صديقا دراسة هما عمر ابن إبراهيم الخيَّام (ت٥٢٦هـ/١١٣١م) الشاعر والفيلسوف وعالم الرياضيات، وحسن الصَّبَّاح. أقسم الثلاثة على أن يتساعدوا فيما بينهم في حال نجح أحدهم وتولى منصبًا رفيعًا، فكان النجاح

الأول من نصيب نظام الملك، الذي أصبح وزيرًا للسلطان السلجوقي، ولم ينس صاحبيه، فأمر لعمر الخيام براتب ثابت، وأسند لحسن الصباح (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م) منصبًا رفيعًا في الدولة، لكن هذا الأخير أخذ ينافسه ويتآمر عليه، فطرده نظام الملك، وأقسم حسن الصباح أن ينتقم منه، فأسس فرقة الحشاشين الإسماعيلية، التي اتخذت من قلعة ألَمُوت بقزوين مقرًّا لها، وتمكنت في النهاية من اغتيال نظام الملك.

(٨٣) هو أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني، فقيه شافعي وأحد أبرز علماء السنة عامة والأشاعرة خاصة في عصره. من أشهر كتبه **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**. توفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.

(٨٤) حجة الإسلام أبو حامد محمد الغَزَّالي الشافعي الأشعري، أحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري. من أشهر كتبه **إحياء علوم الدين**. توفي بمدينة طوس سنة ٥٠٥هـ/١١١١م.

شعر أبي جَعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِيّ (ت ٧٧٩ هـ)

جمع وشرح وتقديم

(١)

أ. د. عبد الرَّازِق حويزي(*)

تُراثُنا العربيّ حاشدٌ بكثيرٍ من الأعلام الذين لم يأخذُوا حظَّهم من البحث، ولم تُدرسْ آثارُهم دراسة مستوعبةً لكل ما أُثِرَ لهم من إبداع أدبيّ، أو نِتَاجٍ فِكري، وهذه الآثارُ حَرِيَّةٌ بالدراسةِ، جديرةٌ بالعناية، حقيقةٌ بالتّحقيق لما بها من اتجاهاتٍ فكريّة، ومناقَشَةٍ لمسائلَ علميَّةٍ في غاية الأهميّة، لا يُمكن أبدًا تجاهلُها في ظلّ عصر المعلوماتيّة.

ومن هؤلاءِ الأعلام (أبو جعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِيّ) العالم الشّهير المظلومُ، الذي هُجرت آثارُه بحجّة أنها من نِتَاجِ فترةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِن الزَّمَنِ، ألا وَهِي القرنُ الثَّامنُ الهجريُّ! والواقع أنَّه أزهَى فَتَرات مَمْلَكة غَرناطة ثقافيًّا وحَضَاريًّا.

لقد آن الأوانُ أن تُغيِّر بعضُ الدّراسات وجهةَ نظرها في تلك الفترة، فقد أنجبت عددًا من العلماءِ الموسوعيين، الذين درسُوا علومَ اللُّغة العربيّة بكُلّ فروعها دراسة دقيقةً، تناولت أدَقَّ مسائلها مع شُمُولِيّة المعرفةِ للعلومِ الأخرى[١]، ومن يتناول بعضَ آثارَ هؤلاء العلماء يعجب من إحاطتهم بدقائقِ المعجم اللُّغوي،

وقدرتهم الفائقة على توظيف غريبِ الألفاظ، والتّطويع السلس لمفردات اللُّغة على النّظم، وهذا الأمر ظاهرٌ لدى شاعرنا (أبي جعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِيّ)، فقد كان يصنعُ شعرَه صناعة دقيقةً عويصة، فكثيرٌ من ألفاظِ أبياتِهِ موظَّفةٌ بدلالاتٍ، تُحَقِّقُ أنواعًا من فنِّ علم البديع، أشرتُ إليها في شرح معاني بعض هذه الألفاظ في المقطَّعات والنُّتف ذوات الأرقام: (٩، ١٢، ١٧، ٤٣، ٤٤، ٥٠، ٥١)، وفي الدِّيوان أمثلة بديعيّة كثيرة مبثوثة في غير هذه النُّتف.

لقد تَعَدَّدتِ المناحي الثَّقافيةُ والإبداعيّة لدى (أبي جعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِيّ)، فجنحتْ به ثقافتُه إلى الإبداع الأدبي شعرًا ونثرًا، وإلى النِّتاج التَّأليفِيّ، وقد التفَتَ بعضُ الباحثين مُؤَخَّرًا إلى إبداعه الشِّعرِي، فأُثِرت في بعض المجلاتِ محاولتانِ (سيأتي الحديث عنهما لاحقًا) لجمعِهِ وتحقيقِه قبلَ هذه المحاولة المتواضعة، التي زادت فيها الحصيلة الشعرية إلى ٢٣٢ بيتًا عما في المحاولتين السابقتين.

وما مِن شكٍّ في أنَّ هذه الحصيلةَ ليست كلَّ نِتَاجِ (أبي جعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِيّ)، فمن المؤكّدِ أنَّ بقيَّةَ مؤلَّفاته أو مؤلفاتِ غيره التي لم تُحقَّق، ولم تُنشر لا تخلو من أشعارٍ له، ويظلُّ أمرُ زيادةِ هذه الحصيلةِ مَرهونًا بظُهور مخطوطاتٍ جديدةٍ.

إنَّ هذه المحاولةَ لا تعدُو عن كَوْنها عَمَلاً بشريًّا لا يخلو من الأخطاءِ والنَّقص، فالكمالُ للّه وحده، وهي محاولةٌ تحتاجُ إلى من يَرْعَاهَا دِراسةً واستدراكًا، والشُّكر الجزيلُ لكُلّ من يهتمُّ بها من إخواني الباحثين.

كثيرةٌ هي الترجماتُ المأثورةُ (لأبي جعفر الغَرْناطِيّ) قديمًا وحديثًا[٢]، فعلى مدارِ عدّة قرونٍ والعلماء يترجمون له في كتبهم، وفي مقدّمات كُتبه، لا سيّما وأنَّه عالمٌ معروفٌ، يُشار إليه بالبنان في عدد من التّخصُّصات العلميّة، خصوصًا في علوم اللُّغة العربيّة التي أُثِرت له فيها مؤلفاتٌ، أثنى عليها العلماء، حيث دَلَّتْ على غزيرِ عِلْمِهِ، وسعةِ استقصائِهِ، ودِقَّةِ معالجتِهِ، وعميقِ فَهْمِهِ؛ لذا كانت بعض هذه المؤلفاتُ محلَّ عنايةٍ وتحقيق بعض الباحثين في بعض الجامعات في دراسات لمَّا يجدْ بعضُها النشرَ على نطاقٍ واسعٍ بعد.

عَاشَ شهاب الدّين[٣] (أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ مَالِكٍ بن إسماعيل بن أحمد الرُّعَينِيّ الغَرْنَاطِيّ)[٤] في القرن الثَّامِن الهجريّ، فقد وُلد عام (٧٠٨، أو ٧٠٩ هـ)[٥].

قال عنه (ابن حجر العسْقلانيّ ت ٨٥٢ هـ): «ارتحلَ إلى الحَجّ، فرافَقَ أبا عبد الله بن جَابر الأَعْمى، فَتَصَاحَبَا وتَرَافَقَا إلى أن صَارا يُعرفَان بالأَعْمَيَيْن، وسمِعا في الرِّحلةِ من أبي حَيَّان، وأحمد بن علي الجزريّ، والحافظ المزّي، وغيرِهم، وكان أبو جعفر شَاعرًا ماهرًا عارفًا بفنون الأدب، وكان رفيقُه عالمًا بالعربية مُقتدرًا على النَّظم، واستوطَنَا ألبيرةَ مِن عمل حلب، وانتفعَ بهما أهلُ تلكَ البلادِ، ونظمَ أبو عبد الله **البَديعيّة** فشرحَهَا أبو جعفر، وصنَّف أبو جعفر أيضًا في العَروضِ والنَّحو. وكان أبو جعفر كثيرَ العبادة، ماتَ عن سبعين سنة»[٦] دون أن يتزوَّجَ[٧].

وقال (السّيوطي): إنّه تُوُفِّيَ في شهر رمضان عام (٧٧٩هـ)[٨]، وكانت وفاتُه بحلب[٩].

قصدَ (الرُّعَينِيّ) عدَدًا من كبارِ شيوخِ عصره؛ حيث «قرأ بالسَّبع على الأستاذ أبي الحسن عليّ بن إبراهيم المعروف بالقيجاطي، والنّحو على الأستاذ أبي عبدالله محمد بن علي الخولاني الإلبيريّ، والفقه على المذكور، وعلى الأستاذ أبي عبدالله البيّانيّ، وعلى قاضي الجماعة أبي عبدالله بن بكّر - بتشديد الكاف - وسمع الصَّحيح على القاضي المذكور»[١٠].

وقصدَه طلابُ العلم، فنهلُوا من علمه؛ منهم: (أبو الربيع المصريّ ت ٧٧٨هـ)، و(ابن المهاجر، عمر بن أحمد ت ٧٧٨ هـ)، و(علاء الدين الإلبيري، علي بن عبد الله ت ٧٩٤ هـ)[١١]، وغيرهم.

ترك (الرُّعَينِيّ) تراثًا علميًّا قيمًا، تمثَّل في عدّة مؤلّفات، حصر المحقّقُون بعضَها في مقدّمات تحقيقهم لبعض مؤلفاتِه[١٢]. من هذه المؤلّفات التي تَعَرَّضُوا لها:

١- **طراز الحُلّة وشفَاء الغُلَّة**، شرح **الحلة السّيرا في مَدْحِ خير الوَرَى**، وهو كتاب قَيِّمٌ، أودَعَه (الرُّعَينِيّ) كثيرًا من علمِه في فنّ البديع، شرح فيه **بديعية**

رفيقه (ابن جابر الأندلسيّ ت ٧٨٠هـ)، حققته (رجاء الجوهري)، ونشرتْه في مؤسَّسَة الثقافة الجامعيّة بالإسكندرية عام ١٩٩٠م، في ٧١٣ صفحة، ومن خلالِ هذا الشَّرْح اتَّضَحَتْ ثقافةُ (أبي جعفر الغَرْناطِيّ) المتنوّعة، وظهرَ عمقُ استيعابِه للتّراثِ الشّعريّ، وكثرةُ محفوظِه منه، وبدتْ أيضًا وجهاتُ نظرِه في الفَنّ الشّعريّ من خلال المطارحاتِ النّقديّة التي كان يُبْدِيها بين الحينِ والآخر مُعلّقًا عَلى ما يُورِدُه من نُصوصِ التُّراثِ الشّعري لشعراء مختلفين في عصور مختلفة. وقد أفدتُ من هذا الكتابِ مخطوطًا ومطبوعًا في جمعِ شِعر الشّاعر.

٢- **شرحُ ألفية ابن مُعطٍ:** حقّق بعضَ أجزائه بعضُ الباحثين، فالسِّفر الأوّل حقّقه (حسن محمد عبدالرحمن أحمد)، في مجلدين، جامعة أم القرى، في أطروحة دكتوراه، عام ١٩٩٤م، والسِّفر الثَّالث حقّقه (د. إبراهيم رجب بخيت)، في أطروحة دكتوراه، في مجلدين، جامعة أم القرى، عام ١٩٩٩م، والسِّفر السَّابع حقّقه (عبد الله بن عمر حاج إبراهيم)، في مجلدين، جامعة أم القرى، في أطروحة دكتوراه، عام ١٩٩٧م. (طالعتُ السِّفر الأوّل، والمجلّد الأوّل من السّفر السّابع).

٣- **رِسَالتان في السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ والمَوْلِد النَّبَوِيّ** (لأبي جعفر الرُّعَينِيّ ورفيقه ابن جابر الأندلسي ت ٧٨٠هـ) المشهورين بالأعمى والبصير، تقديم وتحقيق (مصطفى مبارك التمكروتي)، مركز ابن القطان، الرباط، ط١، ٢٠١١م في ١٤٤ صفحة، واحتلّت رسالة الرُّعَينِيّ من صفحة ٦٥ - ١٠٩.

٤- **تُحْفَةُ الأَقْرَانِ فِي مَا قُرِئَ بِالتَّثْلِيثِ مِنْ حُرُوفِ القُرْآنِ**، حقّقه (د. علي حسين البوّاب)، كنوز أشبيليا، السّعودية، ط ٢، ٢٠٠٧ م، في ٢٧١ صفحة.

٥- **اقتطافُ الأزاهرِ والتقاطُ الجواهر:** حقَّقه (عبد الله حامد النَّمريّ)، في رسالة ماجستير، كليّة الشّريعة، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، في ٢٦٠ صفحة.

٦- **رَفْعُ الحجابِ عن تنبيه الكُتّاب**، وهو شرح لمنظومة رَفيقِه في الفرق بين الضّاد والظّاء، مخطوط يوجد مع النُّسخة المخطوطة لكتاب **تُحْفَةُ الأَقْرَانِ فِي مَا**

قُرِئَ بِالتَّثْلِيثِ مِنْ حُرُوفِ القُرْآنِ. ذكر هذا (د. علي حسين البواب) في مقدّمة تحقيقه لكتاب تُحْفَةُ الأَقْرَانِ[١٣]، وتم تحقيقه[١٤].

٧- رَدُّ الشَّوارد إلى حُكْم القَوَاعد[١٥].

٨- كتاب ألفه مع رفيقه (ابن جابر) فيمن التقيا به في رحلتهما[١٦].

أما عن مكانَته العلميّة والأدبية، فتشهدُ عليها المؤلفاتُ السَّابقة، ويشهدُ عليها نثرُه الفَنِّيّ، الذي ابتعدَ فيه عن التّكلف، وظهر من خلاله تمكُّنه من زمام الكلام، وتربُّعه على صهوة البيان، وهو نثرٌ يفتقرُ إلى تَتَبُّعٍ واستقصاء ودراسة، وقد ألقى عليه الضّوءَ (فراس النجار)، كما تَنَاول دراسةَ النّصوص الشِّعريّة التي جمعها، وهذا أنموذجٌ نَثْرِيٌّ، دَبَّجَتْهُ يراعة (أبي جعفر الغَرْناطِيّ) باقتدارٍ فائقٍ، فانسابَ مُتَدَفِّقًا كالنّهر الجاري في فَصَاحة تَامَّة، وتوظيفٍ جيدٍ لِعَنَاصرِ البيان، قال (أبو جعفر): «فَإِنَّهُ لَمَّا قَلَّبَتْنِي يَدُ النَّوَى بَيْنَ نَشْرِهَا وَطَيِّهَا، وَأَخْرَجَتْنِي عَنِ الأَوْطَانِ إِخْرَاجَ السِّهَامِ عَنْ قِسِيِّهَا، وَحَمَّلَتْنِي الأَيَّامُ مَا يُثْقِلُ مِنْ أَعْبَاءِ نَأْيِهَا، وَسَعَتْ بِي فِي طَلَبِ الْفَوَائِدِ غَايَةَ [سَعْيِهَا]، وَسَهَّلَتْ لِي مِنْ الرّحْلَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ مَا لَمْ أَزَلْ حَامِدًا فِي ذَلِكَ حُسْنَ رَأْيِهَا، وَجَعَلَتْ أَضْرِبُ أَعْدَادَ البِلاَدِ بَعْضًا فِي بَعْض، وَأَخُطُّ أَدِيمَ الأَرْضِ تَارَةً عَنْ طُولٍ وَآونَة عَنْ عَرْض، وَأَنَا فِي طَيّ ذلكَ أَسْتَخْرِجُ الدُّرَرَ مِنْ أَصْدَافِهَا، وَأَجْمَعُ الفَوَائِدَ عَلَى اخْتِلاَفِ أَصْنَافِهَا، إِلَى أَنْ جَمَعْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا مُلِئَ مِنْهُ الوِطَاب، وَذُقْتُ مِنْ حلاَوَةِ الرّحْلَةِ مَا يُسْتَعْذَبُ وَيُسْتَطَاب، فَلَمْ أَزَلْ أَقِفُ عَلَى تَنَوُّعَاتِ البُلْدَانِ مَوْقِفَ الاسْتِحْقَاقِ وَأَتَبَيَّنُ مَدْلُولَ قَوْلِهِ ـ تعالى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]. وَلاَ غَرَضَ فِي ذَلِكَ كُلّه إلاَّ مَسْأَلَةٌ أفيدُها أَوْ أَسْتَفِيدُهَا، أَوْ كَلِمَةٌ أُجِيدُهَا أَوْ أَسْتَجِيدُهَا، أَوْ عَالِمٌ أَعُودُ مِنْ رُؤْيَاهُ [مُمْتَلِئَ] الْفُؤَادِ، أَوْ مُتَعَلّمٌ أَظْفِرُهُ بِالْعِلْمِ الْمُسْتَفَاد. وَمَا بَرِحْتُ فِي طَلَبِ هَذَا الْمَقْصَد، وَتَوَرُّدِ هَذَا الْمَوْرِد، أَحُلُّ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ مَحَلَّ الْمُنْتَقِد، وَأَحُلُّ بِهَا مِنْ عُقَدِ الْعِلْمِ مَا أُبْرِمَ وَعُقِدَ»[١٧].

هذا وقد أثنى رَهطٌ من العلماء على مكانة (أبي جعفر الرُّعَينِيّ) العلميّة، ومنزلته الأدبية؛ فَمِن قَائلٍ: «كان إليه المنتهى في علم النّحو والبديع والتّصريف والعَروض، وله مشاركةٌ في فنونٍ كثيرةٍ ومصنّفاتٍ جيّدة، وكان له نظمٌ ونثر»[١٨]، إلى قائل: «كَانَ مقتدرًا على النّظم والنثر، عَارِفًا بالبديع وفنونه، دَيِّنًا حسن الخلق، حُلْو المحاضرة»[١٩]، إلى قائل: «كان حسن الأخلاق، عالِمًا بالنّحو والتّصريف والبديع، له مُشاركةٌ في علم الحديث وغيره، ويدٌ طُولى في الأدبِ»[٢٠]، إلى قائل: «وكان أبو جعفر مقتدرًا على النَّظم والنّثر، عارفًا بالنّحو وفنون اللسان، ديّنًا حسن الخلق، حلو المحاضرة، كثير التَّواليف في العربية وغيرها»[٢١].

مصادر شعره:

لم يَرِدْ نَصٌّ يفيدُ بأنّ (لأبي حعفر الرُّعَينِيّ) ديوانًا، أو أنّه جمعَ شعرَه. وليست مصادرُ شعرِه من الكَثرةِ بمكانٍ، فالمصادر الأصيلةُ، وهي القريبة منه زمنًا لا تتجاوزُ أصابعَ اليد الواحدة عدًّا، ويعدُّ كتابُه **طراز الحُلّة وشفَاء الغُلَّة** في مقدّمةِ هذِه المصادر، حيثُ أودَعه جُلَّ شعره، ولم يُعتمد على هذا المصدر في المحاولتين السَّابقتين لجمع شعر (الرُّعَينيّ). وتَتَمَثّل أهميةُ هذا المصدر، بالإضافةِ إلى اشتماله على نصوصٍ شِعريّة جديدة، في أنّه صَحَّحَ وهم (المقّريّ ت ١٠٤١ هـ) في كتابه **نَفْح الطيب** في نسبةِ أشعارٍ غير قليلة له، وهي في الحقيقةِ لرفيقه (ابن جابر الأندلسيّ)، فلولا كتابُ **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** لَظَلّ التّداخلُ حاصلاً دون إشارة في مصادر شعره. والجديرُ بالذكر أنّ شعر (الرُّعَينِيّ) الواردَ في كتاب **طِراز الحُلّة** مُكَرَّرٌ في كتاب **نفح الطيب** باستثناء نُتْفتين فقط، هما: (٣١)، (٣٨).

ويأتي كتاب (الرُّعَينِيّ) الموسوم بـ **اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر** بعد كتاب **طِراز الحُلّة** من حيث الأهميةُ باشتماله على أشعارٍ لم تردْ في سواه، فقد اشتمل على (٥٧) بيتًا لم ترد في سواه، وقد لَفَتَتِ الحصيلةُ الشِّعريّة (لأبي جعفر

الرُّعَينِيّ) في **نفح الطيب** بعضَ الباحثين المعاصرين، فنهضُوا إلى جمع شعره، فأُثِرَتْ محَاولَتَانِ لجمعه وتحقيقه، هما:

١- شعر أبي جعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطِي (ت٧٧٩هـ) مع طائفة من نصوصه النّثرية: جمعًا وتحقيقًا، للدكتور: (فراس عبد الرحمن أحمد النّجار)، نشره في **مجلة جامعة الأنبار**، مج ٢، ع٧، ٢٠٠٧م، ثم أعاد نشره بعد تطويره في **مجلة آفاق الثّقافة والتّراث**، السّنة السّادسة عشرة، العدد ٦٤، ٢٠٠٩ م، ص ١٥٥ - ١٩٣، وقد أفادني بهذا أحدُ الإخوة الباحثين الكرام، جزاه الله خيرًا.

٢- شعر أبي جعفر الغَرْناطِيّ للدكتور: (أحمد فوزي الهيب)، **مجلّة معهد المخطوطات**، مج ٥٤، ج ١، ٢٠١٠م، ص ٣٥ - ٧٧، واحتلّتِ النّصوص الشّعريّة من ص ٤٧ - ٧٥.

ولم يطَّلعْ صاحبُ المحاولةِ الثّانية على المحاولةِ الأولى، وجملةُ ما جمَعَه المحقِّقَان الفاضلان - بعد مُراعاة التّفاوتِ بين حَصيلةِ مجموع كُلٍّ منهما- (١٣٧) بيتًا.

ونظرًا إلى قلّةِ النُّصوص الشّعرية المتبقية للشّاعر، وللعثورِ على نصوصٍ جديدة، ارتفعتْ بالحصيلةِ الشّعريّة إلى (٢٣٢) بيتًا، ونظرًا إلى تصحيح تخليط (المقّري ت ١٠٤١ هـ) شِعرَ الشَّاعر بشعر رفيقه (ابن جابر الأندلسي)؛ نظرًا إلى هذا ولغيره، كانت هذه المحاولة التي اتبعتُ فيها منهجًا يَتَمَثَّل في الآتي:

١- رَتَّبتُ الشّعرَ حسبَ حرف رَوِيِّ المقطّعات من الألف إلى الياء.

٢- رَقَّمتُ الأبيات والنُّتف والمقطَّعات.

٣- حَدَّدتُ بحورَ كلِّ ما ورد هنا من نُتَفٍ وَمُقَطَّعَاتٍ وقصائد.

٤- أفصحتُ عن الشّعر المنسوب إلى الشَّاعر على سبيل الخطأ، وجعلتُه في نهايةِ هذا المجموع

٥- تَرجمتُ للأعلام المذكورين في النَّصّ الشِّعْرِيّ.

٦- شرحتُ بعض الألفاظ التي تحتاجُ إلى شَرح، مع توضيح ما في بعض النُّتَف من محسِّنات بديعيّة.

[قافية الألف المقصورة]

(١)

كتب (أبو جعفر الغَرْناطِيّ) على ألفية (يحيى بن معط(*)) في النحو: [من مخلَّع البسيط].

١- يا طَالبَ النَّحْو ذا اجتهاد ... يَسْمُو بِهِ في الوَرَى وَيَحْيَا

٢- إن شئتَ نَيْلَ المرَادِ فاقصِدْ ... أُرْجُوزَةً للإِمَامِ يحيَى

الرواية: (١) ورد البيت الأول في **النُّجوم الزَّاهِرَة** برواية: «تَسْمُو بِهِ في الوَرَى وَتَحْيَا».

ابن مُعْطٍ (٥٦٤ - ٦٢٨ هـ): هو يحيى بن عبد المعطي، عالم أديب، نحوي، منسوب إلى قبيلة زواوة ببجاية في الجزائر، أتى إلى القاهرة، وَتَلَقَّى تعليمه فيها، له مؤلفات؛ من أشهرها: **الدُّرة الألفية في علم العربية، والفصول الخمسون**، وهو منشور بتحقيق د. محمود الطَّناحيّ، أما **الألفِيّة** فعليها أكثر من شرح، وهي مطبوعة بأكثر من تحقيق أيضًا. ينظر مقدمة **شرح ألفية ابن معط** لأبي جعفر الرُّعَيْنِيّ، السِّفْر الأول، و**الأعلام** ٨/١٥٥.

التخريج: **شرح ألفية ابن معط** (السفر الأول)، مج ١/٤، و**النُّجوم الزَّاهِرَة** ١١/١٥٣.

[قافية الباء]

(٢)

وقال مُتَشَوِّقًا إلى (غَرْنَاطة): =من الطويل؛

١- رَعَى الله بالحَمْرَاء عَيْشًا قَطعْتُه ذَهَبْتُ به للأُنْسِ واللَّيْلُ قَدْ ذَهَبْ
٢- تَرَى الأَرْضَ مِنْهَا فِضَّةً فإِذَا اكْتَسَتْ بِشَمْسِ الضُّحَى عَادَتْ سَبِيكَتُهَا ذَهَبْ

الرِّواية: (٢) ورد عجز البيت الثَّاني في **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** برواية: «ذهبنا به».

الشَّرْح: (١) «الحَمْرَاءُ: اسمُ غَرْنَاطة، من أعظم أَمْصَارِ الأَنْدُلُس». **تاج العروس من جواهر القاموس** ٩٢/١١.

(٢) المعنى القريب للسَّبيكة: هو سبيكةُ الذَّهب المعروفة، والشَّاعر لا يريد هذا المعنى، وإنَّما يريد المعنى البعيد على سبيل التَّورية، وهو هنا: موضع بخارج الحمراء. وفي البيتين جناس تام بين كلمتي القافية فيهما. ينظر **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**، وينظر في ذكر الشَّاعر للسَّبيكة رقم (١٣)، ورقم (٤٣).

التَّخْرِيج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ١٥٣، ومخطوطه الورقة ٣٤، **ونَفْح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ١٧٧/١، **وتاج العروس من جواهر القاموس** ٩٢/١١.

(٣)

وقال في حصر الأفعالِ الجامدة: =من الطويل ؛

يُصَـرَّفُ فِعْلٌ غَيْرَ لَيْسَ وَحَبَّذَا عَسى نِعمَ بِئسَ اعدُدْ وفِعْلَي تَعَجُّبِ

التَّخْرِيج: **شرح ألفية ابن معط** (السِّفر الأول)، مج ١٢٦/١ – ١٢٧.

(٤)

وقال: =من الطويل ؛

١- هَلُمَّ (إلى) ذَاتِ السُّتُورِ وأختِهَا (نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المعَذَّبِ)
٢- إذا زُرْتُهَا واللَّيلُ مُرْخٍ ذُيولَهُ (وَجَدْتُ بها طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ)

الرِّواية: (١) ورد صدر البيت الأول في مطبوع **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** برواية: «هَلُمَّ إذَا ذَاتُ السُّتُورِ وأختها».

الشَّرْح: (١) اللُّبانُ: الحاجاتُ من غيرِ فاقةٍ. **تاج العروس** ٣٦/٩١ – ٩٢.

التَّخْرِيج: **طراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٣٥٥، ومخطوطه الورقة ١١٨، وعجزا البيتين تضمينٌ ـ كما قال الرُّعَينيّ نفسه ـ من شعر امرئ القيس، وهما عجزا بيتين في **ديوانه** ص ٤١، وصدر الأول :

خَليلَيَّ مُرّا بي عَلى أُمِّ جُندبِ

وصدر الثَّاني :

أَلَم تَرَياني كُلَّما جِئتُ طارِقًا

وينظر في شرح الشَّاعر لهذا التَّضمين كتابه **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**.

(٥)

وقال: =من الوافر ؛

١- **ومَا زَمَنُ الشَّبَابِ وَأَنْتَ تَجْرِي ... مَعَ الأَيَّامِ فِي لَهْوٍ وَطِيبِ**

٢- **بِأَشْهَى لِلنُّفُوسِ مِنَ التَّلاقِي ... وَأَحْلَى مِنْ مُحَادَثَةِ الحَبِيبِ**

الشَّرْح: في النُّتفة من علم البديع ما يسمى بالتَّفريع، وهو «على قسمين: الأول: أن تُرَتِّبَ حُكمًا على صفةٍ من أوصافِ الممدوح أو المذموم، ثم تُرَتِّبَ ذلك الحكمَ بعينه على صفة أخرى من أوصافه، فيكون الثَّاني قد فرعه من الأصل... والثَّاني: أن تأتي بما النَّافية لا غيرها، من أدوات النَّفي فتدخلها على اسم يناسب مقصودك، ثم تصف ذلك الاسم بأفعل التَّفضيل، ثم تدخل (من) على المقصود بالمدح أو الذم، أو غيرهما، وتعلق المجرور بأفعل التفضيل، فيحصل المساواة بين الاسم المجرور بمن، وبين الاسم الداخلة عليه ما النَّافية، لأنَّ حرف النَّفي قد نفى الأفضليّة فتبقى المساواة». **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٥٧٧.

التَّخْرِيج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٥٧٩، ومخطوطه الورقة ٢٠٩.

(٦)

وقال: =من الطويل؛

١- محاجِرُ دَمْعي قَدْ مَحاهُنَّ ما جَرى — مِن الدَّمْع لَمَّا قيلَ: قَدْ رَحَلَ الرَّكْبُ!

٢- تَناقضَ حَالي مُذْ شَجَاني فِراقُهُمْ — فَمِن أَضْلُعِي نَارٌ وَمِنْ أَدْمُعي سَكْبُ!

الرواية: (١) ورد البيت الأول في **نَفْح الطيب** برواية: «محاسن ربع».

الشَّرْح: (١) مَحْجِرُ العَيْنِ: ما دارَ بها. **تاج العروس** ٥٣٢/١٠. وفي البيتين جناس ناقص بحرفين، في كلمتي (محا، ومحاجر). وفيهما نوع آخر من التجنيس، وهو المضارع بين كلمتي القافية. ينظر **طِراز الحُلّة وشِفاء الغُلَّة**.

التَّخْريج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ١٤٠، ومخطوطه الورقة ٢٩، **وكنوز الذَّهب في تاريخ حَلَب** ٤٦٧/١، **والمنهل الصَّافي** ٢٧١/٢، **ونَفْح الطيب** ٩٠/١، **وإعلام النُّبلاء بتاريخ حَلَب الشَّهباء** ٧٤/٥.

(٧)

وقال في التَّشوق إلى (غَرْنَاطة): =من الكامل؛

١- ذابتْ عَلى الحَمْرَاء حُمْرُ مَدَامعي — والقَلبُ فِيمَا بَينَ ذَلكَ ذَائِبُ

٢- طَالَ المدَى بي عَنْهمُ ولَرُبَّما — قَدْ عَادَ مِن بَعْدِ الإطَالَةِ غَائِبُ

الرِّواية: (٢) ورد البيت الثَّاني في **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** برواية: «طال المدى لي».

الشَّرْح: الحمراء قلعة غرناطة، سميت بذلك بلحظ الاحمرار. **طراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**، وفيه أن الشاهد في ذابت وذائب، والحمراء وحمر، وطال والإطالة (كل هذا من التجنيس الاشتقاقي). ينظر **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**.

التَّخْريج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ١٩٨، ومخطوطه ٥٤، **ونَفْح الطيب** ٣٧٤/٧.

(٨)

وقال: =من السريع؛

١- طَـيـبَـةُ مَـا أَطْـيـبَـهَـا مَـنـزِلاً سَـقَـى ثَـرَاهَـا المـطَـرُ الصَّـيِّبُ
٢- طَـابَـتْ بِمَـنْ حَـلَّ بِـأَرْجَـائِـهَـا فَـالـتُّـرْبُ مِـنْـهَـا عَـنْـبرٌ طَـيِّـبُ
٣- يَـا طيـبَ عَيشِـي عِنْـدَ ذِكْـرِي لها والعَيشُ في ذَاك السِّحرِ(*) أَطْـيَـبُ

الرِّواية: (٣) ورد البيت الثَّالث في **نَفْح الطيب** برواية: «والعيش في ذاك الحِمَى».

الشَّرْح: (١) طَيبَةُ: عَلَمٌ على المَدِينَة النَّبَوِيّة المنوَّرة، على سَاكِنِها أَفْضَلُ الصَّلاة وأَتَمُّ السَّلام. **تاج العروس** ٢٨٧/٣، وَسُمِّيَت بذلك لطيب تُرْبَتِها وهوائها ومائها، وهذا موجود فيها الآن لمن تأمله، أو لطِيب العيش بها، ويمكن أن يقال: لنزول الطَّيِّب بها، وهو النبي ﷺ، وهذا الذي ينشرح له الصدر، وتميل إليه النفس. **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**. والصَّيِّبُ: الصَّوْبُ: المَطَرُ، والصَّيِّبُ: سحابٌ ذو صَوْبٍ. **العين** ١٦٦/٧.

التخريج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٩٦، ومخطوطه الورقة ١٠، و**نَفْح الطيب** ٦٧٧/٢.

(٩)

وقال: =من الكامل؛

١- مَلِكٌ يجِيءُ بِخَمْسَةٍ مِن خَمْسَةٍ لَقِيَ الحَسُودَ بِهَا فَمَاتَ لِمَا بِهِ
٢- مِـن وَجْـهِـهِ وَوَقَــارِهِ وَجَــوَادِهِ وحُـسَـامِـهِ بِـيـدَيْـهِ يَـوْمَ ضِـرَابِـهِ
٣- قَمَرٌ عَلَى رَضْوَى تَسِيرُ بِهِ الصَّبَا والـبرقُ يَلْمَعُ مِن خِلالِ سَحَابِهِ

الرِّواية: (١) ورد البيت الأول في **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** برواية: «ملك تجيء بخمسة من خمسة»، وورد في **أنوار الربيع** برواية: «كُفِيَ الحَسُودَ».

(٢) وورد البيت الثَّاني في **خزانة الأدب** برواية:«وَجَوَاره».

الشَّرْح: (٣) رَضْوَى: جبل بالمدينة المنورة.(**) **معجم البلدان** ٣/٥١، وفي هذه المقطعة من علم البديع ما يسمى باللف والنشر، وهو هنا خمسة بخمسة، ومعنى اللف والنشر: «أن تذكر شيئين أو أشياء إما تفصيلاً، فتنص على كل واحد منهما، كقولك وجهه وقده ولحظه، وإما إجمالاً بلفظ واحد، يشتمل على متعدد، كقولك: لي ثلاثة، ثم تذكر أشياء، على عدد ما ذكرته، كل واحد منهما يرجع إلى واحد من المتقدم، وتفوض إلى العقل ردَّ كل واحد لما يليق به؛ لأنك تحتاج إلى أن تنص على ذلك». **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٤٩٣، فكل كلمة من البيت الثَّاني لها ما يوافقها من البيت الثالث. هامش المصدر السابق.

التَّخْرِيج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٤٩٧ بتقديم البيت الثَّالث على الثّاني، **وخزانة الأدب** لابن حجة الحموي ٢/٦٤ – ٦٥، **ومَعَاهِد التَّنْصِيص على شواهد التّلخيص** ٢/٢٧٦، **وأنوار الربيع في أنواع البديع** ١/٣٥١-٣٥٢.

[قافية الحاء]

(١٠)

وقال: =من الكامل ؛

١- **مَا للنَّوَى مُدّتْ وَأنتَ خَليلُنَا**	**ولَقَبْلُ قَدْ قُصِرَتْ بِرَغْمِ الكَاشِحِ**
٢- **أتبعتَ في ذا مذهبًا لا يُرْتَضَى**	**أَبَدًا وَلَيس الرَّأي فيه بِصَالِحِ**

الرواية: (١) ورد البيت الثَّاني في **طراز الحلة** وفي **مَعَاهِد التَّنْصِيص** برواية: «نقدًا وليس».

الشَّرْح: (١) الكَاشِحِ: مُضمِرُ العَداوةِ. **تاج العروس** ٧/٧٦. وفي البيتين اقتباس من علم النحو. ينظر **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**.

التخريج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٢٩٣، **ومَعَاهِد التَّنْصِيص على شواهد التّلخيص** ٤/١٥١، **ونَفْح الطيب** ٧/٣٧٦، وهما في مخطوط **طراز الحلة وشفاء**

الغلة ٩٤ معطوفان على شعر لابن جابر الأندلسي، وليسا في مجموع شعره، ولعل هذا من وَهْمِ النَّاسخ.

(١١)

وقال: =من السريع ؛

١- أبْـدتْ لي الـصُّـدغَ عَلَـى خَـدِّهـا ... فَـأَطْـلَـعَ الـلَّـيـلُ لـنَـا صُـبْـحَـهُ

٢- فَـخَـدُّهـا مَـع قَـدِّهَـا قَـائِـلٌ: ... «هَـذا شَقِـيقٌ عَـارِضٌ رُمْحَـه»

الرِّواية: (٢) ورد البيت الثَّاني في **مَعَاهِد التَّنْصِيص** هكذا: «فخذها».

الشَّرْح: (١) الصُّدغ: ما انْحَدَرَ منَ الرَّأْسِ إلى مَرْكَبِ اللَّحْيَيْنِ، وقيلَ: ما بَيْنَ العَيْنِ والأُذُنِ... ومن المَجَازِ: الصُّدْغُ: هُوَ الشَّعْرُ المُتَدَلِّي على هذا المَوْضِع. **تاج العروس** ٢٢/٥٢٤.

(٢) البيت الثَّاني تضمين من قول حَجْلِ بن نضْلة الضَّبي في بيته الأول من بيتيه الآتيين (**مَعاهد التَّنْصيص** ١/٧٢):

جَـاءَ شَـقـيـقٌ عَـارِضًـا رُمْحَـهُ ... إنَّ بَنـي عـمِّـكَ فيهم رِمـاحْ!

هَـلْ أحـدَثَ الـدّهـرُ لـنَـا ذِلَّـةً ... أَمْ هَـلْ رَمتْ أُمُّ شَقِيقٍ سلاحْ؟

وفي عجز البيت الثَّاني تورية كما قال الشَّاعر وشرحها في كتابه **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٤٦٧ هكذا: «الرمح وشقيق: فإن المعنى البعيد المراد هو قوام القد، والشقيق المكنى به عن حُمرة الخد، وبَيَّنَهُما بذكر الخد قبلهما، واللف والنشر هنا على الأكثر الأول للأول والثاني للثاني، والمعنى القريب: الرمح الذي يطعن به، وشقيق: اسم الرجل».

التَّخْريج: **طِراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة** ٤٦٧، و**مَعَاهِد التَّنْصِيص على شواهد التّلخيص** ١/ ٧٢، و**نَفْح الطيب** ٢/٦٧٥.

(للبحث صلة)

الهوامش:

(*) كلّيّة الآداب، جامعة الطَّائف

(١) ينظر شعر أبي جعفر الغَرْناطيّ: لأحمد فوزي الهيب، **مجلّة معهد المخطوطات**، مج ٥٤، ج ١، ٢٠١٠م .

(٢) في السُّطور التَّالية ترجمةٌ موجزةٌ، وللتَّوسُّع في ترجمة الشّاعر والوقوف على تفاصيل حياته وأخباره يُرجع إلى:

- **الوافي بالوَفَيات** ٣٠٥/٨ للصّفدي ج٨، تحقيق: محمد يوسف نجم، فيسبادن، ط٢، ١٩٨٢م.

- **الذيل على العبر في خبر من غبر** ٤٧٣/٢ لولي الدين أحمد العراقي، تحقيق: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.

- **غاية النهاية في طبقات القراء** ١٣٨/١ لابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، طبعة مصورة عن الطبعة التي اعتنى بها ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- **كنوز الذهب في تاريخ حلب** ٤٦٧/١ – ٤٧٣، لسبط بن العجمي الحلبي، تحقيق: فالح بكور، شوقي شعث، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٩٦م.

- **إنباء الغمر بأبناء العمر** ١٥٩/١ – ١٦٠، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م.

- **الدرر الكامنة** ٣٤٠/١ لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

- **السلوك لمعرفة دول الملوك** ٤٢/٥ للمقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ١٥٣/١١ لابن تغري بردي، قدم له وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **التحفة اللطيفة** ٢٧٤/١، ٤٨٣/٣، لشمس الدين السَّخاوي، عني بطبعه ونشره: أسعد الحسيني، ١٩٧٩م.

- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: للسيوطي ٣٥/١، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩م.

- **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ج١، ق٢، ٢٢٢ لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيق: محمد مصطفى، دار نشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٤م.

- **درة الحجال في أسماء الرجال**، ذيل وفيات الأعيان ٦٢/١ لأحمد المكناسي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، ط١، ١٩٧٩م.

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ٦٧٥/٢، ٣٧١/٧ للمقري التلمساني، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر ، ١٩٨٦م

- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ٢٣٤/١ - ٢٣٥، ٣٦٢ - ٣٦٣ لحاجي خليفة، عني بتصحيحه وطبعه: محمد شرف الدين، رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

- **شذرات الذهب** ٤٤٩/٨ - ٥٠٠، لابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

- **إعلام النُّبلاء بتاريخ حلب الشَّهباء** ٧٣/٥ - ٧٨ لمحمد راغب الطباخ الحلبي، صححه وعلق عليه: محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط٢، ١٩٨٩م.

- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون** ١١١/١، ٨١/٢، لإسماعيل بن محمد الباباني (ت١٣٩٩هـ)، عني بتصحيحه وطبعه: رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ١١٤/١ لإسماعيل بن محمد الباباني البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف، استانبول ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- **الأعلام** ٢٧٤/١ لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

- **معجم المؤلفين** ٣٣٠/١، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

- مقدمة الأستاذ. عبد الله حامد النمري في تحقيقه لكتاب **اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر**، لأبي جعفر الرُّعَينِيّ، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م .

- مقدِّمة علي حسين البواب في تحقيقه لكتاب **تُحْفَةُ الأَقْرَانِ فِي مَا قُرِئَ بِالتَّثْلِيثِ مِنْ حُرُوفِ القُرْآنِ**، لأبي جعفر الرُّعَينِيّ، كنوز أشبيليا، السعودية، ط ٢، ٢٠٠٧م.

- مقدمة د. رجاء الجوهري في تحقيقها لكتاب **طراز الحُلّة وشِفَاء الغُلَّة**، شرح **الحلة السّيرا في مدح خير الوَرَى**، لأبي جعفر الرُّعَينِيّ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية، ١٩٩٠م.

- مقدِّمة حسن محمد عبد الرحمن أحمد في تحقيقه لكتاب **شرح ألفية ابن معط**: لأبي جعفر الرُّعَينِيّ، السفر الأول، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٩٩٤م، ومقدمة: عبد الله بن عمر حاج إبراهيم في تحقيقه للسِّفر السَّابع من الكتاب ذاته، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٩٩٧م .

- مقدِّمة بحث شعر أبي جعفر الرُّعَينِيّ الغَرْناطيّ (ت٧٧٩هـ) مع طائفة من نصوصه النّثرية: جمعًا وتحقيقًا: **مجلة آفاق الثّقافة والتّراث**، ع٦٤، ٢٠٠٩م .

- مقدِّمة بحث شعر أبي جعفر الغَرْناطيّ، لأحمد فوزي الهيب، **مجلّة معهد المخطوطات**، مج ٥٤، ج ١، ٢٠١٠م .

- مقدِّمة مصطفى مبارك التمكروتي في تحقيقه لكتاب **رسالتان في السيرة النبوية والمولد النبوي** لأبي جعفر الرُّعَينِيّ ورفيقه ابن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠هـ) المشهورين بالأعمى والبصير، مركز ابن القطان، الرباط، ط١، ٢٠١١م.

(٣) **النُّجوم الزاهرة** ١٥٣/١١.

(٤) **الوافي بالوَفَيات** ٣٠٥/٨، ووردت سلسلة النسب مختصرة في **اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر** ٣٦ هكذا: «أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ مَالِكٍ الرُّعَيْنِيّ الْمَالِكِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ الْغَرْنَاطِيُّ».

(٥) **الوافي بالوَفَيات** ٣٠٥/٨

(٦) **إنباء الغمر بأبناء العمر** ١٥٩/١ – ١٦٠ .

(٧) **التحفة اللطيفة** ٤٨٣/٣.

(٨) **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ٣٥/١.

(٩) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ١٥٣/١١.

(١٠) **الوافي بالوَفَيات** ٣٠٥/٨ – ٣٠٦، وللتوسع في هذا الموضوع ينظر **شرح الرُّعَينيّ لألفية ابن معط** (السفر الأول) ١/ ١٤، ففيه استقصاء لشيوخه في المدن المختلفة التي حل بها، وينظر أيضًا: شعر أبي جعفر الرُّعَينيّ الغَرْناطيّ (ت٧٧٩هـ) مع طائفة من نصوصه النّثرية: جمعًا وتحقيقًا، **مجلة آفاق الثّقافة والتّراث** ١٥٩، ع٦٤، ٢٠٠٩م.

(١١) يُنظر **شرح الرُّعَينيّ لألفية ابن معط** (السفر السابع) ٢٥/١ – ٢٨، وفيه استقصاء واسع، وحصر دقيق لتلاميذه، مقدمة بحث شعر أبي جعفر الرُّعَينيّ الغَرْناطيّ (ت٧٧٩هـ) مع طائفة من نصوصه النّثرية: جمعًا وتحقيقًا، **مجلة آفاق الثّقافة والتّراث**، ص ١٦٠، ع٦٤، ٢٠٠٩م.

(١٢) ينظر **شرح الرُّعَينيّ لألفية ابن معط** (السفر الأول) ٣٩/١ – ٥٥، و(السفر السابع) ٢٩/١ – ٣١، و**تُحْفَةُ الأَقْرَان في مَا قُرِئَ بِالتَّثْلِيث مِنْ حُرُوف القُرْآن** ١١– ١٢، و**اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر** ٣٢، و**رسالتان في السيرة النبوية والمولد النبوي** ٣٤، وشعر أبي جعفر الرُّعَينيّ الغَرْناطيّ (ت٧٧٩هـ) مع طائفة من نصوصه النّثرية: جمعًا وتحقيقًا، **مجلة آفاق الثّقافة والتّراث** ١٦١، ع٦٤، ٢٠٠٩م.

(١٣) **تُحْفَةُ الأَقْرَان في مَا قُرِئَ بِالتَّثْلِيث مِنْ حُرُوف القُرْآن** ١١.

(١٤) ذكر حسن محمد عبد الرحمن أحمد في تحقيقه لشرح الرُّعَينيّ لألفية ابن معط (السِّفر الأول) ٤٣/١ أن عابد ياشار كوجاك انتهى من تحقيقه.

(١٥) ينظر **شرح الرُّعَينيّ لألفية ابن معط** (السِّفر الأول) ٣٩/١.

(١٦) ينظر **شرح الرُّعَينيّ لألفية ابن معط** (السِّفر الأول) ٣٩/١، و(السِّفر السابع) ٣١/١.

(١٧) **اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر** ٣٧.

(١٨) **النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ١٥٣/١١.

(١٩) **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة** ٣٥/١.

(٢٠) **السُّلوك لمعرفة دول الملوك** ٤٢/٥.

(٢١) **الدُّرر الكامنة** ٣٤٠/١.

(*) **العرب:** البيت مختل، ورواية «الحمى» أضبط عروضيًا.

(**) **العرب:** ليس هذا الجبل في المدينة المنورة، وقد أورد ياقوت أيضًا قول عرّام السلمي أنه بناحية ينبع على سبع مراحل من المدينة المنورة، وهو الآن ضمن منطقة المدينة المنورة الإدارية. أ.م.ض.

إحيائية ابن التلاميد بالمشرق:
إقلاع وإقناع

(وقفات مع الإسهام اللغوي في المشروع النهضوي)

بقلم: د. محمدن بن أحمد بن المحبوبي(*)

يحسن التذكير هنا بأن الثقافة الشنقيطية عرفت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ميّلاً إلى الإحيائية والنضج، فانتقلت من الاقتفاء إلى الاكتفاء، ومن التحيز إلى التميز، فجاءت نصوصها في هذه الحقبة مغايرة لكثير من نماذج الثقافة العربية الإسلامية الموازية لها والمتزامنة معها، فبدت أكثر منها عمقًا وأسمى لغة وأقرب إلى محاورة القديم وإحيائه، وأقدر على استيعابه واستجلائه، فلم تكتف في هذا العهد بتغطية الصعيد الشنقيطي، بل امتدت نماذجها إلى غيره من ديار المشرق والمغرب، عاملة على نشر روائع الحكم وقادحات الفهوم، وعلى نثر جوامع الكلم ونافعات العلوم، وكان لها بذلك في العالم الإسلامي حضور متميز، فأردنا أن نستجلي جانبًا من هذا الحضور، متلبثين يسيرًا مع جهود علم من أعلام هذه الثقافة وقامة من قاماتها، نعني الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي. فماذا عن جهود هذا الرجل في إحياء التراث؟ وكيف كان عاقبة سعيه في تجديد اللغة وتحديث أساليب البوح الشعري؟ فهل أبدع وأجاد أم أنه كرر وأعاد؟

ذلك ما يسعى هذا الجهد إلى أن يوصل للناس القول بشأنه معوِّلاً على المحاور الآتية:

أولاً: الإحيائية الشنقيطية وجوانب الطرافة والإمتاع:

وخلال هذا المحور نود لو نعرض لمسألتين: أولاهما تهتم بمحاورة العنوان واستنطاقه، وثانيتهما تُعنى بتأصيل الموضوع واستنباته. وذلك على نحو يبرز جوانب التميز والطرافة في الإحيائية الشنقيطية المنسية التي مثَّلت نوعًا من الاستثناء والاستئناف.

١- العنوان:

المقصود من العنوان جملة إبراز جهود الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي (ت ١٣٢٢هـ) في إحياء التراث العربي الإسلامي، فقد مثَّل الثقافة الشنقيطية بالمشرق أحسن تمثيل، مفتِّقًا أزهار المعارف بالحجاز والنِّيل أكمل تفتيق، فدفع عن ثقافة قومه ما ران عليها من خمول وضيم، وأزال عن المعارف الشرقية ما خيم عليها من جمود وغيم. فأعلن انطلاقة الإقلاع على مستوى اللغة والأدب في أيامه، وأقنع كثيرين بضرورة تصحيح الأخطاء وتفصيح الأساليب.

٢- الموضوع مقاربة وتأصيل:

نذكر في هذا المقام بأن لحظات ازدهار الثقافة العربية الإسلامية ونمائها بالمراكز الإسلامية في المشرق من القرن الثالث إلى السابع الهجري، واكبه في بلاد شنقيط، صحراء الملثمين وتخوم السودان، كسوف معرفي وفتور ثقافي، وحينما نضج التعرب والتعلم في هذه الربوع الشنقيطية، واستوت الثقافة على سُوقها لغة وشعرًا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، كانت البلاد العربية قد دخلت في وضع حضاري متَّسم بالضعف والجمود، ولعل في ذلك ما يحمل على القول إن الثقافة العربية الإسلامية في هذا المنكب البرزخي[٣] عاشت ظروفًا

استثنائية فرضتها البيئة الزمانية والعزلة المكانية؛ فعلى مستوى الزمان نجد أن ولادة الإسهام الشنقيطي كانت في الفترات التي تُوسم بالضعف والفتور. وعلى مستوى المكان نلحظ أن هذه البلاد تقع في المناطق التي تعد أطرافًا قصيَّة من بلاد العرب وديار الإسلام.

كل أولئك جعل أغلب النقاد العرب يعرضون عن هذه الثقافة ويصدون عن سبيلها؛ إما جهلاً بنماذجها لبعد مكانها واعتزالها، وإما تحفظًا على لغتها وأساليبها، توقعًا لما يمكن أن تتصف به من الضعف، وذلك لمجرد انتظامها زمانيًا في الفترات التي توسم بالتعثر والفتور.

وذلك الإعراض المذكور هو ما كشف عنه - على مستوى الإبداع الأدبي - أحد كبار الباحثين المعاصرين، مصرحًا أن الإبداع الشنقيطي عرف ضربين من التهميش: أحدهما خارجي إقليمي، والآخر داخلي محلي؛ أما الأول فهو إعراض العرب عن التطلع على مضمون بريده والتعرف إلى مكنون جديده. وأما الثاني فهو تقصير أبنائه في التعريف بنماذجه والترويج لروائعه، منتهيًا إلى أن صحراء شنقيط، من منحنى نهر النيجر إلى ضفاف الأندلس، قد حملت لواء الأدب وأعادت له نضرة الشعر الجاهلي ومتانة أسلوبه، وزخرفته بالآداب العباسية وما لها من حسن البيان، وغذته بقيمها الروحية، فانصهرت عناصره في أدب متكامل غني يظلمه أبناؤه من موريتانيا إذا لم يجتهدوا في التعريف به، ويظلمه العرب إن هم أعرضوا عن التعرف عليه[٤].

فالجهد الشنقيطي وإن كان - من الوجهة النظرية - واقعًا في دائرة الضعف، إلا أن نماذجه تشهد بانفصاله عن هذه الدائرة، فهو يمثل نوعًا من الاستثناء المنقطع، والخروج على قاعدة الضعف، وهو بتنوع أساليبه وثراء مضامينه، ينكب صراط الأشكال الشعرية المتداولة في العصور المتأخرة، محييًا شكل القصيدة العربية القديمة، ومجسدًا نزعة صفوية معجمية عالية، تستعير

السجل القاموسي من مكمنه، وتستثير المعجم الجاهلي من مرقده. وقد مثَّل ابن التلاميد هذا التوجه أحسن تمثيل؛ إذ كان للثقافة الشنقيطية بالمشرق أفضلَ سفير، فهو بجهوده المتميزة قد نقل المعارف المحظرية، بما فيها من سعة المحفوظ وقوة الذاكرة، إلى المشرق، فأسعف أبناءه بتنوع نماذجها في لحظة هم أحوج ما يكونون إليها، فاستنجد بمخزونه أهل نجد، ونال من معروفه أهل النِّيل، وأبان لخصومه هنالك أن ثقافة قومه قادرة على أن تنافس نظيراتها، وتحمل مشعل النضج والتميز في فترات التراجع والانتكاس.

وذلك ما أوضحه في مقطع من نونية بديعة نظمها حنينًا إلى أرض الحرم، وتعريضًا بخصومه هنالك، مصرحًا أنه رباهم وجلس لتعليمهم ربع قرن من الزمان ينثر عليهم درر العلوم، ويسقيهم من سائغات المعارف والفنون؛ يقول(٥):

أحن إلى الرسول فيعتريني ... إذا ليلي دجا ما يعتريني
إلى أهل البقيع وساكنيه ... أُرجِّع موهنًا ولها حنيني
أقول لسائلٍ عني حفيٍّ ... بما عندي من الخبر اليقينِ
وبالسبب الذي جر ارتحالي ... عن الدار التي كانت عريني
هي الدار التي أبكي عليها ... بزفرات لشوق يَطَّبيني
وما آذيت جيراني حياتي ... ولم تكن الأذية من شؤوني
فما أنا بالحريص على جوار ... هنالك جار سوء مستبينِ
فجار السوء أخرج باضطرار ... رسول الله من بلد أمينِ
وقد ربيتهم عشرًا وعشرا ... وخمسًا كاملات من سنينِ
بإطعاميهم والعلم غثٌّ ... سدائف من ذرى علم السمينِ
وسقييهم والعلم خلّ ... سلافة خمر علمي ذا المعين
أعلمهم وأعرض عن أمور ... مريبات أسأن بهم ظنوني

ثانيًا: إحيائية ابن التلاميد وملامح التأهب والإقلاع:

ونعرض في هذا المحور لجانب من جهود ابن التلاميد في الرفع من قيمة التراث العربي الإسلامي، والدفع به إلى الأمام، على نحو يستحضر نوعًا من الإقلاع الحضاري والمشاركة بفاعلية في المشروع النهضوي، خاصة في جانبه اللغوي والأدبي، وذلك ما سنعرض له في مستويين: أولهما يعرض لإسهامات الرجل في مراجعة الكتب التراثية وتصحيحها، وثانيهما يركز على إعادة النظر في بعض الاستعمالات اللغوية، سعيًا إلى إصلاحها وتفصيحها:

١ - الإسهام في جهد المراجعة والتصحيح:

وقد اتخذت المراجعة والتصحيح عند الشيخ عدة صيغ؛ من أبرزها ما كتبه على هوامش نسخته من كتاب **الأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني؛ فقد صحح الأوهام الواردة في النسخة التي وصلت يده من هذا الكتاب، وظهرت تلك التصحيحات في الطبعة البولاقية، غير أنه لم يستوعب كلَّ ما ورد في الكتاب من الأوهام، فقام بعده الشيخ محمد عبدالجواد الأصمعي بإكمال المهمة، وسمى مجهوده **تصحيح الأغاني**، كما تتجلى تحقيقات التركزي وتدقيقاته بشكل واضح في كتاب **أسرار البلاغة** لعبدالقاهر الجرجاني، وكان الكتاب قد طبع أول مرة برعاية الشيخ رشيد رضا، وأدرج فيه تصحيحات محمد عبده عند قراءته للكتاب، مع الاستعانة بجهد بن اتلاميد الشنقيطي، وذلك ما عبر عنه محمود شاكر قائلاً: «وقد أوقع في قلبي الريبة من هذه التصحيحات ما أعلمه من تسرع الشيخ عبده وطغيانه في التصحيح بغير دليل، اعتمادًا على ذكائه وحبه الظهور على أقرانه، ولكن سكَّن من ريبتي استعانة رشيد رضا بالشيخ الشنقيطي لما أعرفه عنه من التثبت وحسن بصره بلغة القوم في عصورهم المختلفة»[٦].

وتبرز كذلك جهود الشنقيطي المتميزة في تصحيح **القاموس**، وقد كان رحمه الله وقف على نسخ كثيرة لكتاب **القاموس**، ثم قابلها على النسخة الرسولية المقروءة على المؤلف في اثني عشر ومائة مجلس، ونسخة ابن التلاميد مضبوطة بالشكل، وهي محفوظة بالكتباخانة الخديوية (دار الكتب) برقم ٢٩ ش، في كتبه الخاصة، ومن نسخة الشنقيطي تم طبع **القاموس** في مصر بالمطبعة الحسينية سنة ١٣٣٠هـ، بعد وفاة الشنقيطي، وعن هذه النسخة أيضًا تم طبعه بمؤسسة الرسالة، في طبعة أنيقة بمجلد واحد، وتعد هذه الطبعة من أجود طبعات **القاموس**[٧].

وعندما شرح الشيخ نصر الهوريني ديباجة **القاموس** قال مستعرضًا مميزات كتابه: «قد بذلنا غاية ما يمكن في تصحيح هذا المطبوع، فقابلناه أولاً على نسخة إمام أهل اللغة الخطير، وأستاذها الكبير المرحوم الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي»[٨].

ونجد الرجل يحمد الله كثيرًا أن حصل على تلك النسخة المقروءة على مؤلفها، مصرحًا أنه بذل جهدًا كبيرًا في استنساخها وتصحيحها، وذلك ما عبر عنه بقوله[٩]:

ختمت بحمد الله ملهم حكمه	**قلَمَّس مجد الدين قاموس علمه**
ضربت له في الأرض حتى وجدته	**بخط أنيق حوله صح باسمه**
وقصَّر عن ذا كل من رام ضبطه	**وطاشت سهام من رماه بسهمه**

كما احتفى كذلك بهذه النسخة ضمن مقطع ميميته يرثي فيه نفسه، ويفتخر بعلومه، مؤكدًا أن كتب اللغة ستبكي عليه كثيرًا، خاصة كتابي **المخصص والقاموس**، فقد أنفق في سبيل ضبطهما وتصحيحهما عديد الساعات، لاسيما كتاب **المخصص** الذي أودى تدقيقه بحياته، فكثيرًا ما ردد في أخريات أيامه «أنا قتيل **المخصص**» يقول[١٠]:

سيبكي عليَّ العلم والكتب بعدما صدعن بأمري غير صم ولا بكمِ
مخصصها المطبوع يشهد مفصحا بما حاز من ضبطي الصحيح ومن رمِّي
وقاموسها المشهور يشهد في الضحى بذاك وفي بِيض الليالي وفي الدُّهمِ

ويحسن أن نسجل في هذا المقام أن تصحيحات التُّركزي للمخصص كانت هي الأصل الذي اعتُمد عليه في طبعة بولاق، فكانت هنالك لجنة عالية المستوى من أبرز أعضائها الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، وحسن عصام، وعبد الخالق ثروت، ومحمد النجار. وقد استعانوا بما كتب ابن التلاميد على هوامش **المخصص** من تصحيحات عنونها بقوله[11]: «بيان العلم المرصص في أوهام **المخصص**».

٢-الإسهام في جهد الملاحظة والتفصيح:

نذكر بأن الشيخ محمد محمود صادف بلوغه المشرق لحظات عصيبة من تاريخ ثقافة القوم؛ إذ عرفت يومئذ نوعًا من التراجع والفتور، وهو بالمقابل قد أخذ بحظ وافر من الثقافة الشنقيطية، فلما وصل الحجاز وجد أهله يخطؤون في بعض الكلمات، فسارع إلى تصحيح ما سمع من الأخطاء المنتشرة هنالك؛ من ذلك تصحيحه لكلمة (التجربة)، التي كانوا يخطؤون في مفردها وجمعها، فيضمون الراء وهي بكسره، كما تدل على ذلك القواعد النحوية الصريحة والسماع الصحيح.

وقد نقل إلينا الشيخ أول درس قدَّمه في المدينة المنورة، لتلميذه عبد الجليل برادة، قبل أن تقع بينهما تلك الجفوة المعروفة؛ يقول: «وأول ما استفاده مني يوم دخولي المدينة المنورة، يوم الاثنين العاشر من محرم ١٢٨٤هـ أن علَّمته كيف ينطق بالتجرِبة والتجارِب؛ إذ كان يضم راءيهما،(...) فقرأ عليَّ قول الشاعر:

وجرَّبت ما جرَّبت منه فسرَّني ولا يكشف الفتيان غير التجارِبِ

فحرف حركة الراء من الكسر إلى الضم، فرددته إلى الصواب (...) وقلت له: إنما هي التجرِبة بكسر الراء، وجمعها التجارِب، بكسر الراء بإجماع أهل اللغة، وأنشدته بيت النابغة الذبياني:

تـوُورثـن مـن أزمـان يـوم حليمة إلى اليوم قد جرَّبن كل التجارِب

فهذا البيت وأمثاله لم يروه جميع الرواة إلا بكسر الراء[١٢].

وبعد أن صحح الشنقيطي هذا الخطأ اللغوي قدم لتلميذه درسًا تربويًا يدعوه من خلاله إلى أن يتعلم، ولا يكتفي بما ورث من المعارف عن أوساطه العلمية، وذلك ما عبر عنه بقوله: «... إنّ الأرض المقدسة لا تقدس أحدًا ولا تعلمه العلم والفضل، وإنما العلم بالتعلم، وعلو الهمم والسعي له سعيه، والمعلم حقيقة هو الله جل جلاله»[١٣].

ومن المسائل اللغوية المهمة التي استرعت انتباه التركزي في المشرق، وعمل على تصحيحها: مسألة امتناع إضافة (أما بعد) إلى التحية، وذلك ما رد به على أحد علماء تونس، ذاكرًا أنه قال، «أما بعد التحية الشاملة». وهذا خلاف الأفصح والمعهود بين أهل اللغة وأرباب اللسان؛ إذ المذهب الصحيح أن تقطع (بعد) عن الإضافة وتُبنى على الضم، قال سيبويه: «أما بعد، فمعناها: مهما يكن من شيء بعد». وقد استدل الشيخ على هذا بفصيح كلام العرب، منشدًا بيت سابق البربري في عمر بن عبدالعزيز؛ إذ يقول[١٤]:

بسم الذي أُنزلت من عنده السور والحمد لله أما بعد يا عمر

ثم يستطرد مستشهدًا بحديث رسول الله ﷺ الوارد في رسالته إلى قيصر الروم، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإنما عليك إثم اليريسيين». وأكثر من ذلك يسوق خطبًا نبوية عديدة، ويذكر رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القضاء، خاتمًا استشهاداته برسالة عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب رضي

الله عنهما، حيث بعث إليه يقول: «أما بعد، فإنه تجاوز الماء الزُّبى، وبلغ الحزام الطُّبيَيْن، وتجاوز الأمر بي قدره، وطمع فِيَّ من لا يدفع عنه نفسه»(١٥).

كما نراه يعرض لمسألة نحوية بلاغية، منتقدًا خلالها رأي القاضي عياض، وهي مسألة (ابن لبون ذكر) الواردة في الحديث الصحيح؛ فقد تناولها عياض مشيرًا إلى أن لفظ (ذكر) في هذا التعبير يحمل معنى آخر غير التأكيد، وذلك ما يمتنع في رأي ابن التلاميد الذي أورد كلام هذا الإمام وعلق عليه في لهجة لا تخلو من السخونة، يقول: «ونصَّ عياض نفسه على أن كلمة (ذكر) للتوكيد، وزاد بعد ذلك أقوالاً هي التي أخطأ فيها، ولا غرْو إن أخطأ، فقد خرق الإجماع سهوًا فيما هو أظهر وأشهر عند العوام والخواص بإعجام دال الشّدق المهملة في كتابه **مشارق الأنوار**»(١٦).

ويخلص التركزي إلى أن العلماء اتفقوا على أن مثل هذا الأسلوب إنما يرد للتوكيد فقط، فقد جاء به القرآن ونطق به الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾(١٧). قال الفراء في **الأمالي**: «إن ﴿**الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ ونحوها تأكيد مما تزيده العرب على المعنى المعلوم، ومن ذلك مثلاً الحديث الذي رواه البخاري في **صحيحه**: «السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». فقوله «الذي بين جمادى وشعبان» وصف لرجب مساق لمجرد التوكيد فقط؛ إذ لا رجب في السنة غير رجب مضر، كما أن (ذكر) بعد (ابن لبون) وصف مسوق لمجرد التوكيد فقط»(١٨).

ولا ننسى أن الرجل أحيى في استعمالاته الشعرية بعض الأساليب اللغوية المنسية، والقواعد النحوية المهجورة، على نحو ما نصادف في تشديد ياء المتكلم المضاف إليها لفظ (الأب)، وقد صرح الشيخ أنها لغة فصيحة، واعتمدها في ميميته المشهورة؛ حيث يقول(١٩):

فبالعلم أوصاني أبِيَّ وحضَّني ... عليه صغيرًا كي أسودَ بني عمي

ومن اللغات التي نص النحاة على اعتمادها تشديد الباء من (الأب) والخاء من (الأخ)، وهو ما استخدمه الشاعر إحياءً للغة وتطويرًا للأساليب؛ ففي المقطع الذي خصص من ميميته للحديث عن شغفه بالعلم، وجهود والديه في تربيته وتكوينه تكوينًا معرفيًا عاليًا يقول[٢٠]:

شغفت بحب العلم طفلاً متممًا | وصار غذاء الروح واللحم والعظم
غذاني بِدَرِّ العلم أرأفُ والد | وأرحم أمٍّ لم تُبتْني على غمِّ
ولم يفطماني عنه حتى رويته | عن الأبِّ ثم الأخِّ والخال والأمِّ

فمن لا يعرف هذه اللغة ينطق لفظي (الأب) و(الأخ) بالتخفيف، فينتقل من السهل إلى الحزن، ويكسر بِنية الوزن.

ومن اللغات التي عمد الشيخ إلى إحيائها: تخفيف الباء من لفظ (رب)، إذا كان غير معرّف بالألف واللام، وقد جسد ذلك في إحدى قصائده البائية قائلاً[٢١]:

لولا الإله ولولا المصطفى وربي | والعلم والصدق والرغباء في الرهبِ
لكنت خلَّيت مع ما فيك من عُجَر | خلف الظهور وتحت النعل والشَّذبِ
لكن ثأرتك بالعلم اليقين خسًا | ثأر العليم الأبيّ الضيم وابن الابي

ثالثًا: إحيائية ابن التلاميد وملامح الوجاهة والإقناع

وفي هذا المحور نذكر بأن جهود الرجل الإحيائية امتازت بشيء من الوجاهة والإقناع، ولعل ذلك راجع إلى تميزه المعرفي وسعة محفوظه المحظري، ناهيك عمَّا اتصفت به منطقة المشرق العربي يومئذ من تراجع وفتور، وهو ما جعل القوم هنالك يشهدون للتركزي بالتميز والتفوق. وسنعرض لجهود الرجل الإحيائية في مستويين:

أ- التفوق في منتديات المناقشة والحوار:

لقد كان للشيخ التركزي بالمحافل المشرقية حضور متميز، فقام بعدة مناظرات معرفية، لعل أبرزها ذلك اللقاء الذي جمعه بعلماء الأزهر حينما

أنكروا عليه بمجلس كبير لبس الخفين الأسودين، فثارت ثائرة الرجل، وطفق يدافع عن نفسه، مبينًا السنة، معددًا الأحاديث الواردة في الموضوع. وقد بلغ هذا الحوار درجة السخونة، فذهب العالم الأزهري سليم البشري إلى أن الإجماع منعقد على منع لبس الخفين الأسودين، فاحتدم النقاش واشتد الجدل والخصام، فشمر الشنقيطي عن ساعد الجد، مبرزًا الحجج والبراهين، موضحًا الأدلة والنقول الواردة في ذلك لتتوج المناظرة بتفوق التركزي. وقد جعل الناس ذلك العام عامًا متميزًا في التاريخ المصري لشهرته، فأصبح يعرف بعام الخفين الأسودين، وقد نظم الرجل في ذلك قصيدة أوضح ضمنها رأيه وأجلى الحق وأبطل الباطل، وقد بلغت واحدًا وثلاثين ومائة من الأبيات، استفتحت بأقوال السلف التي مازت الخبيث من الطيب، مجتهدة في الرد على الخصوم الذين أنكروا سنة أحمد ﷺ، وعابوا فعل الشنقيطي، مغترين بالأقوال الضعيفة، فكانت النتيجة أن أفحمهم في ملأ من قومهم بنصوص واضحة وأحاديث صحاح يقول(٢٢):

بندوة زيد دار غر القبائل	قريش وقيس ثم أحياء وائلِ
أقول كما قد قال قبليَ منذر	محقًا ولم أترك مقالاً لقائلِ
مقالاً كحد السيف وسط المحافل	فرقت به ما بين حق وباطلِ
لقد أنكر الأشياخ سنة أحمد	لباس الخفاف السود هدي الأوائلِ
وعابوا على الشنقيط سنة أحمد	وسيلة كل الناس أسنى الوسائلِ
فأفحمهم طرًا بنص حديثه	وأوثقهم من علمه بالسلاسلِ
فأسمعهم متن الحديث معنعنًا	ولم يرجعوا عن خوضهم في الأباطلِ
وقد جهلوا ما في شمائل أحمد	وهل يجهل الأشياخ ما في الشمائلِ

وقد كانت حياة ابن التلاميد حافلة بعدد من الخصومات الفكرية والنقاشات العلمية والمشاعرات الأدبية، جمعته ببعض من معاصريه في الحجاز وفي بلاد النيل؛ من أمثال عبد الجليل برادة، وعاكش اليمني، وتوفيق البكري. ولئن جلبت

هذه المناقشات العلمية على الرجل كثيرًا من الخصوم، فإنها أثْرت الساحة العلمية، وأبانت عن تفوق الرجل وسعة محفوظه، وأقنعت الناس بمعارفه، وجعلتهم إليه يزفُّون ومن علمه يمتحون.

ب- التميز على مستويات المتابعة والإبداع:

ونسعى في هذا المحور إلى أن نبرز جانبًا من جهود ابن التلاميد في متابعة سلفه من الشعراء، فقد عوَّل في إبداع كثير من نصوصه الشعرية على ذاكرته التراثية، التي وجَّهته شطر محفوظه الجاهلي، عاملاً على ابتعاثه من مرقده، فقد كان «جيد الاطلاع على دقائق مضامين كتب الأدب، غزير الرواية للشعر، كثير الإنشاد له، استحضارًا لأجوائه وتمثلاً بمعانيه وبمواقف قائليه (...).وكان هو نفسه شاعرًا ذا مَلَكَة راسخة، كما كان على درجة كبيرة من امتلاك أدوات وتقنيات القول الشعري، حتى بدا الشعر ـ دون كبير مبالغة ـ طوع لسانه وقلمه»[٢٣].

وقد انتهى أحد الباحثين إلى أن شعر الشيخ يمثل «مظهرًا إبداعيًا متقدمًا لإعادة اكتشاف القصيدة العربية الأصيلة في عصورها الأولى، وكان ملهِمًا لعدد من رواد حركة انبعاث الأدب العربي، وشعراء الإحيائية في فترة مبكرة نسبيًا. ومن المعروف أن جماعة من خيرة أدباء مصر كانوا من تلامذته وجلسائه؛ من أمثال محمود سامي البارودي، ومصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، وبطريقة غير مباشرة طه حسين (...)، إضافة إلى تأثيره الواضح في إبداع وكتابات شعراء وأدباء مصر في أواخر القرن التاسع عشر وصدر العشرين، فمنهم من لقي الشيخ وسمع منه، ومنهم من لم يلتقه وإن استفاد من علمه بطرق أخرى؛ مثل أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمنفلوطي وأحمد أمين وغيرهم»[٢٤]. وسنعرض في هذا المقام لجهود الرجل في الإحياء الأدبي من خلال المحطات الآتية:

١- المعارضة الصريحة الجلية:

وتتجلى بشكل واضح في أحجيته المشهورة، وهي لامية من بحر الطويل، تلتقي مع **لامية العرب** في الوزن والرويِّ، وقد وجهها إلى علماء الأرض شرقًا ومغربًا، وعنونها بقوله: «اختبار علم كل عارف من ألبَّاء أرباب المعارف»، وهو يطرح ضمنها سؤالاً عن اسمين مشهورين؛ هما: (نوفل) و(هشام)، مستشكلاً الدلالة المعجمية لهذين اللفظين؛ فهل هما شخصان أم علما جنس؟ وقد لبث حولاً كاملاً ينتظر الإجابة. ولَمَّا لم يجد لسؤاله ردًا شافيًا أجاب نفسه. وساق اللغز وإجابته في **حماسته**. وقد استفتح الأحجية بأسلوب فخري لا يخلو من التعالي المعرفي، موجهًا سؤاله إلى علماء الأرض؛ يقول[٢٥]:

أسائلكم أهلَ المعارف من عل — إلى السفل والنحرير ينسى ويذهلُ
فعمّ السؤال العرب والعجم كلهم — وخص النصارى ذا السؤال المفصلُ
عن اسمين مشهورين شرقًا ومغربا — أتى بهما الخنذيذ الاخطل دوبلُ
أتى بهشام ثم بعدُ بنوفل — خلال مديح خالد ليس يجهلُ
فأدرج ذين ضمن بيت مهذب — يقر له بالحسن من كان يعقلُ
«أمية والعاصي وإن يدع خالد — يجبه هشام في الفعال ونوفلُ»[٢٦]
فمن نوفل بل من هشام ومن هما — أشخصان أم جنسان عن ذاك أسألُ
مجازٌ هما أم في المديح حقيقة — ألا فليجب منكم عليم مبجلُ

ولما لم يسرع إليه الرد أجاب نفسه، مؤكدًا أن كلمة (هشام) تطلق في اللغة على الجود والسخاء، ففي **القاموس**: «الهشم بضمتين: الجبال الرخوة، وككتف: السخي، وككتاب: الجود، وخمسة عشر صحابيًا، وثلاثون محدثًا»[٢٧]. في حين أن كلمة نوفل تطلق في اللغة على البحر؛ قال في **القاموس**: «النوفل: البحر والعطية»[٢٨]. وقد استهل الشيخ رده بأسلوب غزلي يستأنس ببعض ألفاظ **لامية العرب**،ويركن إلى رويِّها ووزنها، يقول[٢٩]:

أَلَمَّت سُليمى العلم والليل أليلُ ... ولَمَّا يعقها ذو تمائم مغيلُ

وقال سُليمى الجهل عرفاء جيأل ... نهارًا وليلاً للأباطيل تذألُ

وأنبأني عدل رضى أنها لغت ... وأنك عن تقوالها اللغو تسألُ

وقالت عليك العلم والبر رُمْهُما ... مجدًا وخير البرِّ برٌّ معجلُ

أجب أنت مذ عامين أحييت سنة ... وفاقًا لما سن الرسول المفضلُ

سألت جميع الناس شرقاً ومغربًا ... سؤالاً أتى أهل المعارف من علُ

عن اسميْ هشام الجود والبحر نوفل ... أحلهما الفحل المعدي الاخطلُ

سواء مديح شاع في العرب كلها ... به قد تغنَّى راحلون ونُزَّلُ

فقلت لها والله يعلم أن لي ... فتاوى عليها في الجواب المعوَّلُ

هشام هو الجود السخاء ونوفل ... هو البحر هذا الحق لا يتزلزلُ

فذان هما الجنسان صِيغا حقيقة ... مجازهما للشخص عن ذين ينقلُ

فواضح أن التركزي اعتمد في النص الأخير ألفاظًا تتقاطع تقاطعًا صريحًا مع **لامية العرب**،كقوله: «والليل أليل»، «عرفاء جيأل»، «راحلون ونُزَّل» وغيرها.

وأكثر من ذلك نصادف له قصيدة سماها: «تحلية كل جيد عاطل بتأييد السنة ونفي الباطل»، نظمها تنديدًا ببدعة الاحتفال السنوي بكنس قبة ضريح الإمام الشافعي، مستنكرًا هذا التقليد. وهذه القصيدة تحاور في معظم أبياتها رائية امرئ القيس المشهورة:

سما لك شوق بعدما كان أقصرا ... وحلَّت سليمى «بطن قَوٍّ فعرعرا»

وقد افتتح التركزي قصيدته ببيت يتقاطع مع مطلع هذه القصيدة، متصرفًا فيه تصرفًا يسيرًا، حيث قدم السُّنة النبوية الشريفة في صورة الميتة المقبورة، وكأنه يشير بذلك إلى ما تعرضت له من البدع والانحرافات، معززًا في ذلك كله بنية نصه الشعري ببعض ألفاظ امرئ القيس؛ يقول[٣٠]:

سما لك شوق قط ما كان أقصرا وحلّت سُليمى السُّنة الرِّمس في الثرى
وما فوق ظهر الأرض بطن تحلّه ومن قبل حلّت بطن قَوٍّ فعرعرا
نفتها من ارض الله أظلم بدعة وألقت عصا التسيار فيها كما ترى

وإثر ذلك يصور لنا ازدحام الزوار على هذه القبة في الحفل المذكور، معبرًا عن ما يقع بينهم من التدافع، وما يتعرضون له من المخاطر، مستحضرًا شطرًا كاملاً من الرائية المذكورة، يقول[٣١]:

وينشد حال القوم وقت ازدحامهم (كأني وأصحابي على قرن أعفرا)

ويختم نصه منوهًا بقصيدته، مصرحًا أن القوم دفعوه إلى أن ينتقدهم، ويبين مخالفتهم للسنة، مستحضرًا بعض أشطارها ذلك النص المرقسي، الذي وضعه نصب عينيه؛ يقول[٣٢]:

فأنتم لعمري أنطقتني رماحكم فقلت صوابًا بالجواهر يُشترى
نظامًا يفوق الدُّرَّ حسنًا وبهجة يُصَوِّب معروفًا وينكر منكرا
قوافي يرضاها جريرٌ وجرول تحلَّين (ياقوتًا وشذرًا مفقَّرا)
وكان الختام الحمد لله وحده يفوح (بمفروك من المسك أذفرا)

٢- المعارضة المحتشمة الخفية:

وفي جانبها اتجهت ظاهرة إحياء الشعر الجاهلي عند التركزي وجهة أسلوبية تُعنى باستحضار المقدمات الغزلية والألفاظ الجزلة، والأسماء التراثية. ويبدو ذلك جليًا في مقدمة ميميته المشهورة، حيث استلهم أسلوب العرب في التغزل وما يقوم عليه من طروق طيف الحبيبة، واستحضار الأسماء التراثية من الذاكرة (مي)، زد على ذلك اعتماده لغة قاموسية يصعب فهمها على غير المتمرس؛ يقول[٣٣]:

ألا طرقت (مي) فتى مطلع النجم غريبًا عن الأوطان في أمم العجمِ
فتى من مصاص العرب قد جاء شاكيا تعدِّيَ أهل الجور والظلم والهضمِ
منافية زارت على شحط دارها خدبًا مذبًّا عن قريش وعن دعمِ

فتاة ضياء الشمس ضوء جبينها حصان رزان عبلة بضَّة الجسم
إذا غاب عنها البعل حينًا تخدرت ويرضيه نيل اللثم إن آب والشَّمِّ
تصافحه عند الُّلقى بأنامل سباط البنان لا غلاظ ولا كزم
وتسقيه من ثغر أغرّ مفلَّج لذيذ المذاق ذي رُضاب وذي ظلمِ

فقد وردت في هذه الأبيات ألفاظ قاموسية يفهم منها أن الرجل أبدع هذا النص من الذاكرة أكثر مما استقاه من الواقع، محاورًا نصوصًا جاهلية عديدة، فجاءت لغته عالية المستوى، تذكر بأساليب الأقحاح من مضَّغ الشِّيح والقيصوم. من ذلك مثلاً (خدبًّا مذبًّا، حصان رزان، عبلة بضّة الجسم، سباط البنان لا غلاظ ولا كزم، رضاب، ظلم).

زد على ذلك تضمين الشاعر لأشطار من تلك النصوص الجاهلية على نحو ما فيه قوله(٣٤):

إلى مثلها يصبو الحليم صبابة فيصبح صبًّا مستخفًّا بلا حلم

إذ ينظر في هذا البيت إلى قول امرئ القيس، مكتفيًا باستبدال كلمة (يرنو) بـ (يصبو):

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبطرَّت بين درع ومجول

٣- اللازمة المؤثرة الشجية:

ومن تجليات هذا الإحياء الأدبي عند الرجل: اعتماده ظاهرة (اللازمة)، وهو نهج شائع في كثير من نصوص الشعر الحديث. فاعتماد ابن التلاميد لهذه الظاهرة وإعادة الاعتبار إليها يعد جهدًا إحيائيًا مبكرًا سبق رواد الشعر المعاصر، وتقدمهم بعقود، وكأنه يعيد إلى الأذهان رنة تلك اللازمات الجاهلية، المتميزة على نحو ما نصادف في **لامية الحارث بن عباد**، الذي أعاد بها عبارة «قرِّبا مربط النعامة مني» ثماني عشرة مرة، مصدِّرًا بها بعض أبياته؛ يقول:

قرِّبا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيالِ
قرِّبا مربط النعامة مني تبتغي اليوم قوتي واحتيالي

قــرِّبــا مــربــط الــنــعــامــة مــنـي　　　لـيــس قــولـي يُـــراد لـكـن فـعـالـي
قــرِّبــا مــربــط الــنــعــامــة مــنـي　　　شـاب لـيـلـي وأنـكـرتـنـي الـفـوالـي
قــرِّبــا مــربــط الــنــعــامــة مــنـي　　　طـال لـيـلي عـلى اللـيـالي الطـوالِ

كما نجد النهج نفسه عند المهلهل في رده على خصمه الحارث ضمن لامية كرر فيها اللازمة « قرِّبا مربط المشهر مني» ثلاث عشرة مرة؛ يقول:

قــرِّبــا مــربــط المـشــهـر مـنـي　　　لـكـلـيـب الـــذي أشـــاب قـــذالـي
قــرِّبــا مــربــط المـشــهـر مـنـي　　　واســـألاني ولا تـطـيـلا سـؤالي
قــرِّبــا مــربــط المـشــهـر مـنـي　　　سـوف تـبـدو لـنـا ذوات الحـجـالِ
قــرِّبــا مــربــط المـشــهـر مـنـي　　　إن قـــولـي مـطـابـق لـفـعـالـيَ
قــرِّبــا مــربــط المـشــهـر مـنـي　　　لـكُـلـيـب فـــداه عـمـي وخـــالـي

كما نصادف أبياتاً أخرى عند المهلهل يكرر فيها اللازمة «على أن ليس عدلاً من كليب» مستفتحًا به عدة أبيات، حيث يقول:

عـلـى أن لـيـس عـــدلاً مـــن كـلـيـب　　　إذا طـــرد الـيـتـيـم عـــن الجـــزورِ
عـلـى أن لـيـس عـــدلاً مـــن كـلـيـب　　　إذا رجـف العضـاه مـن الـدبـورِ
عـلـى أن لـيـس عـــدلاً مـــن كـلـيـب　　　إذا مـــا ضـيـم جـيـران المجـيـرِ
عـلـى أن لـيـس عـــدلاً مـــن كـلـيـب　　　غـــداة بـلَابـل الأمـــر الخـطـيـرَ
عـلـى أن لـيـس عـــدلاً مـــن كـلـيـب　　　إذا بـــرزت مخـبـأة الخـــدورَ

وهكذا فإن التركزي أخذ بهذا الأسلوب مستفتحًا به عدة أبيات من ميميته المتقدمة، معولاً على إعادة (اللازمة)، «ولم أعتمد إلا على الله وحده» التي استهلَّ بها ثمانية أبيات من نصه؛ يقول(٣٥):

ولـم أعـتـمـد إلا عـلـى الله وحـده　　　وأبـرأ ممن خـاض في الغيب بالرجمِ
ولـم أعـتـمـد إلا عـلـى الله وحـده　　　وأبـــرأ ممن قـال في العلم بـالـوهـمِ
ولـم أعـتـمـد إلا عـلـى الله وحـده　　　وأبـــرأ مـمـن يـدَّعي العلم بالـزعـمِ
ولـم أعـتـمـد إلا عـلـى الله وحـده　　　وأبـــرأ ممن دنَّس العِرض بـالـلـؤمِ
ولـم أعـتـمـد إلا عـلـى الله وحـده　　　وأبـرأ من سوءات ذي الشُح والشؤمِ
ولـم أعـتـمـد إلا عـلـى الله وحـده　　　وأبــــرأ مـمـن قـد تـلـوَّث بـالـوصـمِ

ولم أعتمد إلا على الله وحده وأبرأ من إتيان ما غِبُّه يصمي
ولم أعتمد إلا على الله وحده وأسأله إعلاء كعبي على خصمي

وهكذا ففي تضاعيف هذه القصيدة يكرر الرجل لازمة أخرى، وهي «وإني في ازدياد علمي لَمُمْعِنٌ»، فقد وردت على لسانه أربع مرات، حيث يقول[٣٦]:

وإني في ازدياد علمي لَمُمْعِنٌ لأُحرز دون الناس غُنمًا على غنمِ
وإني في ازدياد علمي لَمُمْعِنٌ لأجدع أنف الحاسدين على الرغمِ
وإني في ازدياد علمي لَمُمْعِنٌ لأملأ صدر الضد وغْمًا على وغمِ
وإني في ازدياد علمي لَمُمْعِنٌ لترضى بناتُ الخال عنيَ والعمِّ

وفي أعقاب هذه القصيدة يكرر اللازمة «سيبكي عليَّ العلم والكتب بعدما» خمس مرات، حيث يقول[٣٧]:

سيبكي عليّ العلم والكتب بعدما أُغَيَّب في رِمسي فيندبني باسمي
سيبكي عليَّ العلم والكتب بعدما وضعت على أعناق أوهامها وسمي
سيبكي عليَّ العلم والكتب بعدما قسمت بعدل وهمها أعدل القسمِ
سيبكي عليَّ العلم والكتب بعدما تمكن من تزييف بهرجها حكمي
سيبكي عليَّ العلم والكتب بعدما صعدن بأمري غير صُمٍّ ولا بكمِ

ويتابع هذا الأسلوب نفسه في نونيته المطولة، التي يعرض فيها لارتحاله عن الحرم المكي، مكررًا اللازمة: «رحلت عن الرسول وصاحبيه» خمس مرات يقول[٣٨]:

رحلت عن الرسول وصاحبيه إلى بلد على علمي أمينِ
رحلت عن الرسول وصاحبيه محافظة على عرضي وديني
رحلت عن الرسول وصاحبيه مخافة خدن جهل يزدريني
رحلت عن الرسول وصاحبيه مخافة كل غدار فتونِ
رحلت عن الرسول وصاحبيه مخافة قوم سوء يبهتوني

ولا ننسى كذلك أن الرجل عمل على استعادة نموذج المجموعات الشعرية القديمة المعروفة بالحماسات، لذلك سمى كتابه **الحماسة**، مقنعًا القارئ بتميُّزها؛ إذ صرح أنها:«على صغر حجمها وعلو نجمها، وكون معظمها أمثالاً، لن تجد لها في الحماسات أمثالاً، فقد حوت علمًا جمًّا، غزيرًا مهمًّا، فوائدها أثيرة، منافعها كثيرة، لا يأنس بها الجاهلون، ولا يعقلها إلا العالمون»[٣٩].

خاتمة

وفي الختام نشير إلى أن الشيخ محمد محمود بن التلاميد عمل جهده على إحياء التراث العربي، مركزًا على المستويين اللغوي والأدبي، مسهمًا في الإقلاع النهضوي بفاعلية، فعمل على تصحيح المعاجم والدواوين، وسعى إلى تفصيح الألفاظ والأساليب، مستثيرًا النموذج الجاهلي من مرقده، ومتربعًا من الإبداع الشنقيطي على مقعده، فتهيأت له أسباب الدرس والبحث والتأليف، فدرَّس ودارس، وحقّق وراجع، ونسخ وقابل، وجدَّل وجادل، ونظَّر وناظر، فاتسعت بذلك دائرة جهوده الإحيائية لتشمل:

١- ترسيخ آداب البحث والمناظرة وتقاليد الجدل والحوار، اعتمادًا على مبدأي الصرامة والصراحة، فتفوق بذلك على نظرائه وخصومه، وهيّج من الحراك العلمي دارس رسومه.

٢- تنوع مستويات الأنشطة الإحيائية؛ إذ تناولت إلقاء الحصص، وتصحيح الأخطاء، واستنساخ الكتب، وتحقيق التراث، وتجديد أساليب البوح الشعري.

٣- ترسيخ استثارة العقل العربي؛ وذلك بطرح جملة من الإشكالات اللغوية والنحوية التي تدفع إلى رياضة الأذهان وقدح الأفهام؛ مثل (مسألة صرف عمر، وابن لبون ذكر، واللغز المتعلق بكلمتي نوفل وهشام).

٤- ترسيخ تقريب المدونات الشعرية القديمة من القارئ، فقد ضمت **حماسة التركزي** عددًا لا حصر له من المقطوعات الشعرية، تعود في جملتها إلى عصور الاستشهاد، وتلوذ بموضوعات مختلفة، فقلَّ أن يتناول مسألة إلا وأنشد فيها شعرًا، وكأنه بذلك يصرف الأبصار تلقاء هذه المدونات الشعرية القديمة، ويحمل القراء على امتطاء حصانها والارتماء بأحضانها.

الهوامش:

(*) رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية ـ انواكشوط ـ موريتانيا.

(١) للتوسع في ترجمته راجع:

Revu et-tarbiya ENS 2015 N 7: BREF Aperçu de la vie et l'oevre de chekh mohamed mahmoud ibn tlamid: par : d maamed sidya ould khabaz. p: 3

وإسهام العلماء الشناقطة في حركة النهضة الأدبية في المشرق المغرب، ملتقى القرنين ١٣ ـ ١٤؛ مقال بعنوان : الشيخ محمد محمود ولد اتلاميد، بقلم سيد محمد ولد حدمين ولد سيد الهادي، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص٧٨.

(٢) **المعجم الوسيط**، إبراهيم أنيس وآخرون، القاهرة ١٩٧٢، ط١، مادة شرق.

(٣) هذه التسمية أطلقها الشيخ محمد المامي بن البخاري على هذه البلاد، وكأنه يرى أنها انتبذت من العالم العربي والإسلامي مكانًا قصيًّا، فجاءت همزة وصل بين البلاد العربية وبين إفريقيا وبلاد السودان.

(٤) **الشعر والشعراء في موريتانيا**، محمد المختار بن أباه، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص: ٧٢، بتصرف.

(٥) **الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطيةالتركزية**، محمد محمود بن اتلاميد، مطبعة الموسوعات بمصر، ١٩١٣هـ، ٢/ ١٤١ وما بعدها.

(٦) مقدمة **أسرار البلاغة**، ص ٨.

(٧) **قطع العناقيد من ترجمة الشنقيطي بن التلاميد**، تأليف رائد بن حسن الشلاحي، ص٧١.

(٨) المرجع السابق.

(٩) **الحماسة السنية**، ص١٤١.

(١٠) المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

(١١) **قطف العناقيد**، ص ٧٢.

(١٢) **الحماسة السنية**، ص ١٠٤-١٠٥.

(١٣) المرجع السابق، ص ١٠٦.

(١٤) المرجع السابق ٧٨/٢.

(١٥) **أدب الرحلة في بلاد شنقيط** د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي، مطبعة المنار، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٢٤٤.

(١٦) **الحماسة السنية** ، ٩٢/٢.

(١٧) سورة الحج، آية ٤٦.

(١٨) **الحماسة السنية**، ٩٦/٢.

(١٩) المرجع السابق، ٩/١.

(٢٠) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٢١) المرجع السابق، ١٤/٢.

(٢٢) المرجع السابق،، ١٣٤/٢ وما بعدها.

(٢٣) **إسهام العلماء الشناقطة في حركة النهضة الأدبية في المشرق والمغرب**، ص ٧٨.

(٢٤) المرجع السابق، مقال بعنوان: ابن التلاميد في مصر قراءة أولية في إسهامه، ص١١٤.

(٢٥) **الحماسة السنية**، ص ١٠١.

(٢٦) هذا البيت للأخطل، من قصيدة يمدح بها خالد بن عبد الله بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، ومطلعها:

عفا واسط من آل رضوى فنبتل ... فمجتمع الحرين فالصبر أجمل

انظر الديوان، ص ٢٢٩.

(٢٧) **القاموس المحيط**، مادة (هشم).

(٢٨) المرجع السابق، مادة (نفل).

(٢٩) **الحماسة السنية**، ص ١٠٢-١٠٣.

(٣٠) المرجع السابق، ١٥٤-١٥٥.

(٣١) المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٣٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٦.

(٣٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٨.

(٣٦) المرجع السابق، ص ١٠.

(٣٧) المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

(٣٨) المرجع السابق، ١٤٧/٢.

(٣٩) المرجع السابق، ٢٣/٢.

فيض الذاكرة المعطاء
قراءة في تعليقات البحّاثة الثبت
عبدالحميد الرشوديّ (١٩٢٩- ٢٠١٥م)

أ.د.نادية غازي العزّاويّ(*)

من حسن طالع المرء أن يدرك نفرًا من علماء عصره، فكيف إذا تعزّز الأمر بلقائهم الشخصيّ؟ لا شكّ ستعمّ الفائدة؛ إذ سيزاد على الرصيد العلميّ رصيد أخلاقيّ واعتباريّ يتحصّل من استيعاب قيمهم العليا النبيلة، متوخّين حُسن الأُمثولة والأُحدوثة. وهذا بعض ما جاد به الزمان عليّ، حين أتاح لي التلمذة على عدد من أساتيذ العربيّة في العراق، فضلاً عن التعرّف إلى شخصيات فكريّة وثقافيّة بارزة، ومنهم البحّاثة العراقيّ الثبت، والعالم الزاهد عبدالحميد الرشوديّ، أحد أعلام الحياة الثقافيّة في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين، وآخر رواة تراث الشاعر الكبير معروف الرصافي (ت ١٩٤٥م)[١]. الرشوديّ الذي ترك للمكتبة العربيّة كتبًا ومباحث أصيلة ستبقى منهلاً علميًا ثرًّا للأجيال.

سطور من سيرته العلميّة: في مستهل هذه الفقرة، لا أجد أفضل من كلمات الرّشوديّ يعرف فيها نفسه، في أوراق تركها عندي بخط يده الجميل، تحت عنوان (رؤوس أقلام)، يذكر فيها - بضمير الغائب على عادة العلماء في تواضعهم،

وتحرّجهم من التصريح بضمير المتكلم ـ جانبًا من نشأته العلميّة: «ولد في محلة جامع عطا، من محالّ الكرخ سنة ١٩٢٩م، لأسرة متوسطة الحال. بعد إكماله الدراسة في المراحل الثلاث، انتسب إلى كلية الحقوق سنة ١٩٤٩م، وتخرج فيها سنة ١٩٥٣، ولما كان هاجسه الأدب فقد انتمى إلى كلية الآداب، جامعة المستنصرية سنة ١٩٦٣، وتخرّج فيها سنة ١٩٦٧، حاصلاً على بكالوريوس آداب، بدرجة جيد جدًا للمراحل الأربعة.

هوي منذ صباه الباكر الأدب واللغة، واستطاع بتوالي الأيام أن يجمع مكتبة خاصة تشبع طموحه وتطلعاته، وظلّ يمدّها بكلّ ما هو جديد ومفيد، حتى صارت مكتبة تملأ القلب، وتقرّ بها العين، هي اليوم أنيسَه في وحدته، والواحة ذات الظلال الوارفة في صحراء حياته، يفزع إليها كلما وجد فراغًا ومتَّسعًا من الوقت، لينهل من ينبوعها الصافي ما يطفئ به لهب الأيام، وينسى هموم الحياة، وما أكثرها. وحين آنَسَ في نفسه القدرة على التعبير عن مكنونات نفسه وخواطره، شرع يكتب بعض المقالات والتعليقات والمتابعات، وقد نشرت له في حينه بعض التعقيبات في **مجلة الرسالة** المصريّة سنة ١٩٥١م».

كانت حصيلة هذه الرحلة مؤلفات قيمة، تعدّ اليوم مراجع أمينة موثّقة لطالبي العلم، وهي:

١- **ذكرى الرصافي**. بغداد ١٩٥٠م.

٢- **آراء أبي العلاء المعريّ** للرصافي، تقديم وتحقيق. بغداد ١٩٥٥م.

٣- **الأدب الرفيع** للرصافي، إشراف وتصحيح. ط١ ١٩٥٦م، ط٢ ١٩٦٩م.

٤- **الزهاويّ دراسات ونصوص**. بيروت. مكتبة الحياة ١٩٦٦م.

٥- **مقالات فهمي المدرس** ج٣، بالمشاركة. مطبعة أسعد ١٩٧٠م.

٦- **المحفوظات المدرسية للمدارس الابتدائية** ١٩٥٥م.

٧- **إبراهيم صالح شكر حياته وآثاره**، بالمشاركة. بغداد ١٩٧٨م.

٨- **الآلة والأداة** للرصافي، تحقيق وتعليق، ط١ بغداد١٩٨٠م، والطبعة الثانية ٢٠٠١م ـ القاهرة.

٩- **الرصافي: حياته . آثاره . شعره**، ط،١ بغداد، ١٩٨٨م، ط٢، دار الجمل، ٢٠١١م.

١٠- **مصطفى علي حياته وأدبه**، بغداد ١٩٨٩م.

١١- **الرسائل المتبادلة بين الرصافي ومعاصريه**، ط١، بيروت، ١٩٩٤م، ط٢ مؤسسة المدى، ٢٠٠٩م.

١٢- **تحليلات عروضيّة لشعر الجواهريّ**. بيروت، ٢٠٠٢م.

١٣- **الرصافي خطيبًا**، دار المدى، ٢٠١٤م.

١٤- **بغداد في الشعر العربي المعاصر**، دار المدى، ٢٠١٤م.

١٥- **تراث الرصافي النثريّ**، بالمشاركة، دار الجمل، ٢٠١٣م.

١٦- **تراث الزهاويّ النثريّ**، بالمشاركة.

١٧- وتحت الطبع: **تراث مصطفى جواد في النقد واللغة والتاريخ**، في ثلاثة مجلدات.

فضلاً عن عشرات المقالات في الصحف والمجلات العراقية والعربية ستجمع قريبًا. وستردّ الإحالات على قسم منها في هذا البحث.

والمتأمّل في سيرته ونتاجه يمكنه أنْ يضع اليد على بعض المؤثرات في تكوينه الثقافيّ؛ منها: صلته المبكرة الوثيقة بالكتاب التراثيّ في بيت العائلة، التي أدت دورًا بارزًا في رصانة تأسيسه، كما أكد ذلك في إحدى شهاداته قائلاً: «لم أكن غريبًا عن الكتاب، ولم يكن الكتاب عني غريبًا، فقد فتحتُ عيني ـ حين فتحتها ـ على خزانة كتب كان والدي ـ رحمه الله ـ قد اقتناها، وهي تتكون من عدة رفوف، لها بوابة ذات مصراعين، وكثيرًا ما كنتُ أفتحُ بوابتها، وأجيل الطرف في رفوفها مبهورًا.

وحين كنتُ أرى والدي وقد جلس أرضًا تحت المصباح النفطيّ، وقد أسند ظهره إلى الجدار، واستغرق في القراءة، أتمنى أن يأتي اليوم الذي أكون فيه قادرًا على قراءة هذه الكتب، والانتفاع بما فيها من العلوم والمعارف، وشدّ ما كان سروري يزداد، حين يكلفني والدي بإعادة الكتاب إلى الخزانة، أو جلب غيره بعد أن يصفه لي وصفًا كاملاً (جلده كذا وحجمه كذا)، فأعود إليه بالكتاب المطلوب، وقد ملأ السرور جوانحي، وطفح البشر على قسماتي.

وحين انتقل الوالد إلى رحمة الله، اضطرت العائلة تحت وطأة الحاجة أن تبيع شطرًا من هذه المكتبة، وخاصة كتب الفقه والتفسير والحديث والعقائد، وقد استخلصتُ لنفسي الكتب النحوية والأدبية والبلاغية، والتي أصبحت بعد ذلك نواة لمكتبتي، فمما ضننتُ به من تلك الكتب: شروح **ألفية ابن مالك** والأشموني والخضريّ والمكوديّ، بطبعاتها الأولى ذات الورق الأصفر، وكذلك من الكتب الأدبية التي احتفظتُ بها: **معاهد التنصيص** للعباسيّ، و**الطراز في البلاغة** للعلوي اليمانيّ، و**ديوان المتنبيّ** بشرح البرقوقيّ في طبعته الأولى ١٩٣٢، ومن الكتب التاريخية: ثلاثة أجزاء من **تاريخ ابن خلدون**، وجزء يضمّ تعليقات الأمير شكيب أرسلان عليه، ومن كتب التفسير: احتفظتُ **بالكشّاف** للزمخشريّ، ومن الحديث بأجزاء من **صحيح البخاريّ**، وغيرها من الكتب التي تلائم هوايتي»[٢].

ومن المؤثرات الأخرى التي ظل يعترف بدورها في إثرائه معرفيًّا وفكريًّا: صلاته الشخصيّة الوثيقة بمجموعة من رجالات الثقافة وأعلامها[٣]، وعدّها عاملاً مهمًّا في توجيه حياته الفكريّة، وعلى نحو ما وصف ـ بدماثته المعهودة ـ العلماء في بعض مقالاته، فقال فيهم: «وكان من حسنات الأيام ـ وما أقلّ حسناتها وأكثر سيّئاتها ـ أنْ أدركنا ثلّة من هؤلاء الرجال الفاضلين، وجلسنا منهم مجلس الطالب المستفيد المستزيد، فأفدنا من علمهم، وانتفعنا بنصحهم وإرشادهم الأدبي ما كان لنا جُنّة من زلل، وعصمة من خطأ، ومنجاة من غرور»[٤]، منهم

ـ مثلاً ـ المؤرخ العالم عباس العزاويّ، الذي تحدّث بإكبار عن تجربته معه في تصحيح تجارب طباعة كتبه ـ وهي ثقة لم يمنحه إياها العزاويّ اعتباطًا ـ فضلاً عمّا هيّأه له مراس مبكر مع الطباعة والتنقيح، وفيه ما فيه من دُربة القلم الأدبيّ والنقديّ، يقول عن هذا المؤرخ العلاّمة: «نذهب إليه في مكتبه الكائن في (خان الباجه جي)، في سوق الساعاتيّة... غرفته بين بالات الأقمشة، فقد كان الخان يعجّ بمكاتب التجار والمستوردين... وكان معه في المكتب نجله البكر، المحامي فاضل العزّاويّ، فكلفه بجلب بعض مؤلفاته، وقدّمها لي هدية بعد أنْ وشّحها بعبارات المودّة والإخاء، كان ذلك بُعيد ثورة ١٤تموز، وظلت علاقتي به جيدة وموصولة، فقد كنتُ أحضر عصر كلّ يوم، وأقوم بتدقيق وتصحيح تجارب الطبع إلى ما بعد الغروب، ثم ينفرط عقدنا ليعود إلى اللقاء في اليوم التالي... كان عباس العزاويّ مشتركًا في كثير من المجلات، وله وكلاء في البلاد العربية، يوافونه بالمطبوعات الجديدة التي تقع في دائرة اختصاصه، وكان يؤْثرني بقراءتها وإعادتها إليه، وقد أفدتُ فائدة عظمى من هذه الصلة التي كانت ربيعًا مزهرًا من حياتي الثقافية والأدبية، فقد توسّعت دائرة معارفي، وأصبحتُ ملمًّا إلمامًا تامًّا بالنشاط الثقافي في سورية ومصر والمغرب، وغير ذلك من الأصقاع العربيّة، ودوائر الاستشراق، فقد كانت له مراسلات مع ماسنيون، الذي زامله في المدرسة المرجانيّة، وتتلمذ معه على العلاّمة علي علاء الدين الألوسيّ، وقد ذكر لي ذلك العزّاويّ، وقال: إنّ ماسنيون قد اعتمر العمّة ولبس الجبّة، شأنه شأن جميع طلبة العلم من المسلمين، وكذلك المستشرق الألماني ريتر، ومن المستعربين: من إيران عباس إقبال، ومن تركيا إسماعيل حقي الأزميريّ»[٥].

ومنهم الشاعر والمفكر الحرّ (أحمد الصافي النجفيّ)، والعلاّمة (د. مهدي المخزوميّ)، والناقد (د. علي جواد الطاهر)، والعلاّمة (محمد بهجة الأثريّ)، والشخصية الوطنية (حسين جميل)، و(جلال الحنفيّ)، والكتبيّ المعروف (قاسم الرجب)، والمحقق الكبير (عبود الشالجي)، وأسماء لامعة أخرى في سماء الفكر، عرفهم وخبرهم من كثب.

نظرات في منجزه: يمكن رصد المجالات التي جال فيها قلمه، وتدفّقتْ فيها ذاكرته بتجلياتها السياسيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة، بالآتي:

١- نشره وتحقيقه نوادر النصوص التي ترقى إلى مستوى الوثائق، وبخاصة دوره في نشر تراث الرصافي النثري وتآليفه، لاسيما رسائله وخطبه في مجلس البرلمان، التي تكشف عن وعي الشاعر السياسيّ، ودوره الإداريّ والنيابيّ الجريء في نقد الظواهر السلبيّة، والتصدي لهيمنة السلطة وأتباعها في المجتمع آنذاك، مما يجلو أمام الدارسين كثيرًا من التناقضات، التي قد تواجههم في فهم أسرار شخصية هذا الشاعر وشعره.

تتجلّى في عمله الدقة والمنهجيّة العالية في التحقيق والتوثيق، والبحث عن كل الموارد التي يمكن أن تعزّز المعلومة، أو ترفدها بجوانب تجلو أبعاد الموضوع على نحو أوضح، فلم يكتف ـ مثلاً ـ في كتابه الرائد عن (مصطفى علي) بما استفاده منه، بحكم صلته الشخصيّة الحميمة به، والتي أجملها بالقول: «فقد كان ـ يرحمه الله ـ يفضي إليّ بلهجته الصادقة الصريحة المعهودة بكثير من الأحداث التي مرّت به وتركت أثرها في نفسه وسلوكه»[٦]، بل طرق باب مصادر غير متوقعة، خَمَّن أنها قد تسعفه في إجلاء تفصيلات أخرى مفيدة عن هذه الشخصيّة، فقال: «وقد رأيتُ من تمام الفائدة أن أرجع إلى إضبارته التقاعدية المحفوظة في مديرية التقاعد العامة برقم (٣١/٣١٥٩)، فاستقيتُ منها جدولاً تفصيليًا بوظائفه ورواتبه»[٧].

ولن يخالجه أي شعور باليأس أمام دأبه في البحث والتحرّي، كما يتضح ـ مثلاً ـ في وقفته على رسالة من تأليف الرصافي بعنوان: **دفع المراق في كلام أهل العراق**، فقد روى الآتي: «وقد ذكر لي الأستاذ المرحوم مصطفى أنّه قام في أوائل سنة ١٩٤٧ بنقل الفصول التي نشرتها **مجلة لغة العرب**، و**جريد حبزبوز**، وأنّه ضمّ إليها فصولاً وجدها بين أوراق الرصافي المبعثرة التي عمل على تصفيتها

وتنسيقها في أواخر ١٩٤٤، كما ذكر لي أنها لا تكمل الكتاب، وحين سلّمني- رحمه الله - نسخته هذه حاولتُ أن أبحث عن بقية الكتاب، وذلك عن طريق أقرباء نوري ثابت، فلم أحظ من أحد بجواب شافٍ. هذا ولعل الأيام تسعفنا فنعثر على الفصل الضائع»[٨].

وحرصه العلميّ هذا يستند إلى أمانة علميّة عالية عرف بها، مرتبطة بوعيه العميق بالمسؤولية التاريخيّة، لإماطة اللثام عن الأسماء المنسيّة والجهود المهدورة، إحقاقًا للحقّ وإنصافًا للفكر: «فإنّ من حقّ الجيل الجديد علينا أن نعرّفه بهؤلاء الرواد الذين عبّدوا الطريق أمام نهضته الحاضرة، وأزالوا عنها الصخور، واجتثوا الأشواك، ليسير في طريق لاحب، وقد أمن العِثار والضلال. وإنّ من الوفاء لأولئك الرجال الذين تحمّلوا من عنت معاصريهم، وما كانوا يصكّون به مسامعهم من الطعن واللعن وقوارص الكلِم، أن ننوّه بذكرهم، ونعترف بفضل سابقتهم في بناء حياتنا الفكريّة والوجدانيّة، وتوجّهها الوجهة الصحيحة التي تضمن للأمة حياة سعيدة رغيدة، وترقى بها إلى معارج التطور والرّقيّ»[٩].

ومن هذه المنطلقات الصحيحة، كانت تحقيقاته غاية في الدقة والسلامة، على مستوى إخراج المتن، وكتابة الهامش، وتخريج الشواهد والنصوص، وله في التحقيق نظرات ممتازة، منها قوله: «الأصحّ والأحوط أن يُذكر النصّ كما كتبه المؤلف في المتن، لأنّ المتن حرم آمن للمؤلف، لا يجوز أن يقتحمه أو ينافسه فيه أحد، وللمحقق في الهامش متسع ومرتاد، فهو الذي يحقّ له أن يصول فيه ويجول، وإنّ على المحقق الحصيف أن يتهم النفس قبل أن يسارع إلى اتهام النصّ»[١٠].

٢- تعليقاته على الدراسات والبحوث، وحواشيه الفريدة من نوعها التي ذيّل بها مقالاته وكتبه في رصد فوات المؤلفين والمحققين، والتي نالت ثقة المؤلفين أنفسهم، فصارت تذيّل الطبعات الثواني من كتبهم بتصحيحات الرشوديّ لها، كما حصل- على سبيل التمثيل لا الحصر- مع كتاب (مير بصري): **أعلام الأدب في**

العراق الحديث بأجزائه الثلاثة المذيَّلة بتصحيحات الرّشوديّ وملحوظاته[١١].

وتُعنى تعليقاته فيما تُعنى به إبراز ما يجلو (الذاكرة المجتمعيّة)، بمعلومات يندر أن نجدها عند غيره، تسعفه في ذلك حافظة يقظة غزيرة، وقراءة دقيقة ومتابعات ومفاتشات في المصادر والمظانّ، زدْ على ذلك علاقاته الاجتماعية بالأسر البغدادية والشخصيات البارزة في المجتمع، فهي حافلة بالأسرار والدقائق المنسيّة التي لا تكاد تظفر بها إلاّ في رأس الرشودي، وتحت أسَلَة قلمه الرصين، تعليقات تضجّ بصخب الحياة اليومية، ومشاهد الواقع؛ إذ تلعب الأقدار بحياة المشهورين والمغمورين، والبسطاء من الأفراد ونجوم المجتمع، والمغنين والشعراء والوزراء على حدّ سواء.

والمتمعّن في هذه التعليقات يستطيع أن يميّز فيها عدة محاور؛ منها:

أ- ذاكرة الأمكنة، بشقيها: أمكنة الحياة وأمكنة الموت؛ إذ تتضح نزعته الأثيرة بوصف الأمكنة، وفرزها، وتحديدها جغرافيًّا، والتنويه بالأوهام التي وقع علماء كبار في ذكرها، مع حرصه على بيان تحولات الشواخص العمرانية فيها. ولن يبالغ الدارس حين يعدّ الرشوديّ بامتياز من مؤرخي الحياة العمرانيّة الاجتماعيّة العراقيّة والبغداديّة خاصة ، فهو يحدّد مواضع (دور) الأعلام الذين درسهم، أو مرّ عليهم في تضاعيف ملاحظه: الأزقة التي تحتويها، والأرقام البلدية التي تحملها، ويتطرّق إلى الأحداث التاريخية التي شهدتها، وبما ينطوي عليه مفهوم (البيت) من دلالات نفسيّة وفكريّة عميقة في الإنسان، حتى ليغدو البيت وجهًا آخر من وجوه الوطن، وجزءًا من تاريخه، أو رمزًا بديلاً عنه أحيانًا.

يعلّق الرشوديّ على قول الجواهريّ:

ويا مقيلاً على غربيّها أبدًا ... ذكراه تعطف من عودي وتلويني

«يشير في هذا البيت إلى الدار التي استأجرها في محلة الست نفيسة بجانب الكرخ، وكانت مطلّة على النهر»[١٢]. وسيعاود الحديث عن هذه الدار مرة ثانية

في مقالة أخرى، مسمّيًا الأشياء بدقة أكثر قائلاً: «إنّ الشاعر الكبير محمد مهدي كان قد استأجر الدار العائدة لعائلة علي الدبو، والمطلّة على شاطئ النهر، وسكنها من أوائل الأربعينيات، وقد ذكر الجواهريّ أنه نظم مقصورته على سطح هذه الدار» (١٣).

وما كانت مباحثه الثمينة عن الرصافي لتمرّ من غير وقفة على تحديد داره، ببعديها الحقيقي والمجازي، الواقع أو القناع الذي يشتمل على رؤى من يسكن فيه: «كان الرصافي في أوائل العشرينيات يسكن دارًا قبالة دار **جريدة الاستقلال**، لصاحبها عبدالغفور البدريّ، والتي لاتزال قائمة إلى يومنا هذا، وهي تحمل الرقم (٣) في الزقاق (٣٧)، الذي يتفرّع من شارع سوق الهرج، ويفضي إلى الإعدادية المركزيّة، وكان من عادة الرصافي ألاّ يُحكم رتاج الباب عند مغادرته الدار، اعتقادًا منه أنّه ليس فيها شيء يغري اللصوص، فعاد ذات يوم ليجد داره قد سرقت، ولم يبق فيها شيء حتى فراشه الذي ينام عليه»(١٤). فأية كوميديا سوداء شهدها معًا الرصافي وداره!!!

وذِكر الرصافي يستدعي بالضرورة ذكر نِدّه الزهاوي، فلم يترك الرشوديّ الأمر يمرّ دون تصريح بحدث تاريخيّ، احتضنته دار الوجيه (محمود صبحي الدفتري)، قائلاً: «وقد تمّت المصالحة بين الشاعرين....بمسعىً حميد منه في داره، عصر يوم السبت ٨كانون الأول ١٩٢٨، بحضور نخبة من رجال الأدب والعلم والسياسة»(١٥).

وذاكرة الأمكنة عنده مفعمة أيضًا بأسماء المقاهي والجسور والنُّصُب والتماثيل والمستشفيات والملاهي، وسواها من قسمات المدينة التي تحيا عميقًا في وجدانه.

علّق على ما ورد في كتاب (خالص عزمي) **هوى بغداد**، وهو يعرّف بشواهد العاصمة قوله: (مستشفى العرناء أو العزل)، فما كان من الرشودي إلاّ أن تدخل مصحّحًا وموضّحًا: «والصواب أنّ مستشفى العرناء كان يقع على شاطئ

قمريّة، وقد تحوّل في الثلاثينيات إلى مدرسة تطبيقات دار المعلمين، ثم حوّل بعد ذلك إلى العيادة الخارجية لمستشفى الكرخ، أمّا مستشفى العزل فيقع في محلة الدوريين قريبًا من مقبرة الحلاّج، وكان قد أُسّس للمصابين بالأمراض المعدية كالسلّ والجذام والجرب، ثم طوّر بعد ذلك وصار يدعى مستشفى الكرامة، وهو اليوم أكبر مستشفيات الكرخ وأرقاها»[١٦].

وحين ذكر المؤلف في موضع آخر (جسر الملك فيصل الثاني)، انبرى الرشوديّ مصححًا: «والصواب جسر الملك فيصل الأول، وكان الإنكليز قد نصبوا جسرًا خشبيًا سنة ١٩١٨ سمَّوه (تذكار مود)، وبعد إقامة الجسر الحديدي الذي افتتح سنة ١٩٤٠م، سمي جسر الملك فيصل الأول، وبعد ثورة ١٤تموز بُدّل اسمه إلى جسر الأحرار»[١٧].

إن أمثال هذه الملحوظات المكتنزة في كتبه تكشف عن تفاعله العميق مع ما حوله، وكأنه يعلّمنا بحقّ فن العيش؛ إذ يغدو الشاهدَ الأمين الذي يرصد التحولات الزمكانية في هذا الوجود، وأثر الأحداث السياسية في لعبة تغيير الأسماء والنعوت الخارجية، من غير أن تنال من أصالة الهويّة التي تتمتّع بها تلك الأمكنة.

وإذا كان (البيت) رمز (الحياة) في أنصع صورها، فإنّ (القبر) الرمز الآخر الذي يقع في الطرف الأقصى منها، إذ يتكافأ المكانان في قدَريَّتهما المفروضة على الإنسان وجودًا وعدمًا. ومن هذا المنظور الجدلي عناية الرشودي الملحوظة في تحديد الوفيات زمانًا ومكانًا، وعلى نحوٍ واضح يرتبط بقصديّة معينة، فهو حريص على تحديد الوفاة باليوم والشهر والسنة، مشفوعة بتحديد موضع (القبر) ومكانه بالضبط وهيئته، بطريقة تشعرنا أنه ربما زار تلك القبور وفاء لذكرى أصحابها في نفسه.

قال عن (محمد سعيد الحبوبي): «وقد أدركته المنيّة في الناصرية في ١٥ حزيران ١٩١٥، ثم نقل جثمانه إلى النجف، حيث دفن في الجهة الجنوبية المقابلة لإيوان ميزان الذهب»[١٨].

ووجد من تمام ترجمة جميل الزهاويّ (ت ١٩٣٦) أن ينوه: «ودفن في الأعظمية، وعقدت عليه قبة لاتزال قائمة إلى يومنا هذا»[١٩].

وذكر في تضاعيف تعريفه بسكرتيرة المندوب السامي البريطانيّ في العراق (المس بيل) أنها «توفيت في بغداد في ١٢تموز ١٩٢٦، ودفنت مساء ذلك اليوم في المقبرة الإنكليزية بالباب الشرقيّ»[٢٠].

وما كان كلامه عن العلّامة (محمود شكري الألوسي) ليمرّ من غير بيان لتاريخ الوفاة وموضع (القبر) بتفصيل من عرف المكان وتفحّصه جيدًا: «ووفاته يوم ٤ شوال ١٣٤٢هـ، الموافق ٩ مايس ١٩٢٤م، ودفن في مقبرة الجنيد البغداديّ، حسب وصيّته، إلى جانب والده عبدالله وأخويه مسعود ومسعودة، وقد أقيمت على قبورهم بنيّة، وعليها شاهد، وهذه البنيّة ملاصقة للبنيّة القائمة على قبر السيد عبدالحميد الألوسيّ، أخي أبي الثناء لأبيه»[٢١].

وصحّح لمير بصري ما أورده في ترجمة (عبدالرحمن البنّاء) من أنّه توفي في ٢٦ حزيران ١٩٥٥ قائلاً: «والصواب ٢٧ مايس ١٩٥٥م، وكما هو مسطور على شاهد قبره في مقبرة الشيخ معروف الكرخيّ»[٢٢].

وترسّخ بعض تعليقاته في هذا الجانب المفارقات التي تنطوي عليها ذاكرة الموت في بعض وقائعها وخياراتها، فكأنّ مفارقات هذا الوجود تأبى أن تغادر أصحابها حتى في قبورهم، قال عن وفاة الشاعر (عبدالقادر رشيد الناصريّ): «وافاه الأجل وهو نزيل فندق بائس في الكرخ يحمل عنوان (فندق الضيوف)، وذلك مساء الثلاثاء ١٥ أيار ١٩٦٢، ودفن في مقبرة الغرباء في باب المعظم، وهكذا لازمته الغربة في الحياة والموت»[٢٣]، وهي المفارقة نفسها التي رصدها في وصفه للمشهد الأخير لوفاة الشاعر الشعبيّ (عباس العبدليّ): «توفي إلى رحمة الله في أوائل الستينيات بالسكتة القلبية، في القسم البلدي الثامن في الكرخ، وهو ينتظر دوره لتسلّم راتبه المخصّص له من صندوق إعانة الفقراء»[٢٤].

ب- ذاكرة الكتب والمطبوعات المكتظة في حواشيه، بعنوان نوادر المجلات والصحف العراقية والعربية، وأماكن صدورها ومطابعها، وأعدادها وتواريخها، وحالات توقفها وأسباب تعطيلها، إلى غير ذلك من معلومات ثمينة، تصلح أن تكون مباحث مستقلة في تاريخ حركة الطباعة في البلاد العربيّة، بل هي بحقّ قطعة مهمة من التاريخ الأدبيّ العربيّ الحديث. ونظرة سريعة على تعليقاته التي سطّرها على (رسائل الرصافي)، تجعلك بمواجهة هذا المسرد المهم:

١- «**المقتبس**: مجلة أدبية شهرية، لمنشئها (محمد كرد علي)، صدرتْ في شباط ١٩٠٦م في القاهرة لمدة ثلاث سنوات، وبعد إعلان الدستور نقلها صاحبها إلى دمشق، وقد كانت هذه المجلة فتحت صفحاتها لأدباء العراق وشعرائه؛ كمحمود شكري الألوسيّ، ومعروف الرصافي، وجميل صدقي الزهاويّ، ومحمد رضا الشبيبيّ، وعبدالقادر العباديّ... وغيرهم».

٢- (سليمان التاجي الفاروقيّ) (ت ١٩٥٨): «وأصدر في يافا جريدة باسم **الجامعة الإسلاميّة**».

٣- «**بيت المقدس** جريدة فلسطينية، لصاحبها بندلي إلياس شحرور، صدر عددها الأول في ٢٦ كانون الأول ١٩١٩م».

٤- «**جريدة ألف باء** جريدة سوريّة أصدرها يوسف العيسى بدمشق في ١ أيلول ١٩٢٠م».

٥- (رزوق غنّام، ت ١٩٦٥م): «هو صاحب جريدة ومطبعة **العراق**، من أطول الجرائد العراقية عمرًا».

٦- (مراد سليمان فائق) «المؤرخ المعروف، ومؤسس **جريدة بغداد**، لسان حال جمعية الاتحاد والترقّي في بغداد».

٧- (عبدالرحمن البنّاء) (ت ١٩٥٥م): «أصدر صحيفة باسم **بغداد**».

٨- (هبة الدين الشهرستانيّ، ت ١٩٦٧م): «هاجر إلى النجف الأشرف... وقد أصدر هناك **مجلة العلم**، ثم نقلها إلى بغداد».

٩- «**الأمل**: جريدة أصدرها الرصافي، ظهر عددها الأول في ١ آب ١٩٢٣م، وقد كُتب في صفحتها الأولى (صاحب الامتياز ومديرها المسؤول معروف الرصافي)، صدر منها (٦٨) عددًا، وتوقّفتْ عن الصدور في ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٢٣م، بسبب الهجوم الشخصيّ الجائر الذي أعلنه إبراهيم صالح شكر على الرصافي في جريدته **الناشئة الجديدة**».

١٠- «صاحب **جريدة الفيحاء** هو قاسم الهمياني، من أحد بلاد البقاع، انتقل إلى دمشق يوم قامت الحكومة العربية الأولى، فلمّا جزّأ الفرنسيون سورية، وألحقوا البقاع بلبنان استقرّ... في دمشق، وأصدر بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٢٣م **صحيفة الفيحاء**، ثم حولها إلى مجلة».

١١- (روفائيل بطي، ت ١٩٥٦م): «أصدر سنة ١٩٢٤م **مجلة الحرية**، وقد استمرتْ في الصدور مدة سنتين، وبعد ذلك انفرد بإصدار **جريدة البلاد**، التي استمرّت في الصدور إلى ما بعد وفاته، حيث تولى أنجاله إصدارها».

١٢- «معروف الأرناؤوط...: أصدر **جريدة فتى العرب** في شباط ١٩٢٠م، وظلّ يصدرها إلى أن وافته المنيّة صباح الجمعة ٣٠ كانون الأول ١٩٤٨م».

١٣- «جريدة **الزمان** لصاحبها (توفيق السمعاني)، صدرت في ٥ مايس ١٩٣٧ م، واعترتْ حياتها الصحفية فترات تعطيل، ثم عُطّلتْ نهائيًا في ٨ شباط ١٩٦٣م».

١٤- «صبيح الغافقي... أصدر في ٣ مايس ١٩٥٢م **جريدة الحارس**، يومية سياسية، وفي سنة ١٩٦٤م أصدر الأستاذ عبدالقادر البراك **جريد البلد**، فكان الغافقيّ ضمن الهيئة المشرفة»[٢٥].

ولا تقف عنايته عند حدود المجلات والصحف فحسب، ولكنه يعنى بالكتب وسنوات نشرها، وما يتصل بها من شؤون المطابع ودور النشر، موثّقة باليوم والشهر والسنة، مِمَّا يفيد أي دارس لتاريخ الطباعة في العراق والبلاد العربية؛ من ذلك ما ذكره عن (أنور شاؤول) ودوره الرائد في هذا المجال: «وفي عام ١٩٢٩

حصل على إجازة من وزارة الداخلية، لإصدار مجلة باسم **الحاصد**، أسبوعية جامعة، لصاحبها ورئيس تحريرها المسؤول أنور شاؤول، وقد صدر عددها الأول يوم الخميس ١٤ شباط ١٩٢٩، وبعد تخرّجه في مدرسة الحقوق سنة ١٩٣١، جعل عنوانها: (صحيفة سياسية أسبوعية جامعة)... ونظرة فاحصة عليها تدلّ على مستواها الأدبيّ والعلميّ الراقي، وقد استمرتّ في الصدور بانتظام سبع سنوات كاملات، تخللتها سنة احتجاب واحدة...ثم احتجبت بمحض اختيارها في ٣١ آذار سنة ١٩٣٨م. وقد أشار إليها ألفيكونت فليب دي طرازي في كتابه **تاريخ الصحافة العربية**، الجزء الثالث ص٨٤.

وكما خدم الأدب والصحافة، فقد أسدى إلى فنّ الطباعة في العراق يدًا بيضاء، فعندما أسس شركة التجارة والطباعة المحدودة، وكان قد استورد مطبعة حديثة، وتشهد الكتب التي طبعت فيها على أنها مطبعة عصرية راقية، طوّرتّ فن الطباعة في العراق، وقد تولت هذه المطبعة طبع كتاب **تاريخ العراق بين احتلالين**، و**تاريخ النقود**، و**تاريخ الموسيقى عند المغول**، و**الكاكائية في التاريخ** و**مجموعة عبدالغفار الأخرس**. وكلها للمؤرخ الأستاذ عباس العزاويّ، وهناك كتب كثيرة أخرى لمؤلفين آخرين»[٢٦].

ولا يقتصر رصيد ذاكرته الثقافية على المطبوعات فقط، ولكنه يتصل بدقائق تواريخ المؤسسات الثقافية: الجامعات، والندوات، والجمعيات.... وغيرها، على المستوى المحليّ والعربيّ معًا، علّق على معلومة أوردها مير بصري في ترجمة (محمد شفيق العاني)، موضّحًا أنّه التحق بكلية الحقوق سنة ١٩٣١، فقال: «الصواب (مدرسة الحقوق)؛ لأنها لم تُسمَّ كلية إلاّ بعد أن تولى عمادتها الدكتور أحمد عبدالرزاق السنهوريّ، الذي رفع الدراسة إلى أربع سنوات، بعد أن كانت ثلاث سنوات»[٢٧]، وذلك في سنة ١٩٣٦م.

وعزّز حديثه عن الشاعر (علي الجارم، ت ١٩٤٩م) بالتطرّق إلى بعض التفصيلات التاريخية المفيدة، قائلاً: «حضر إلى بغداد في وفد مصري، برئاسة

الدكتور علي إبراهيم وأحمد الإسكندري، ممثلين لمصر في المؤتمر الطبيّ العربيّ الأول، الذي عقد في ببغداد خلال المدة ٩ شباط و١٣ شباط ١٩٣٨، والذي افتتح في بهو الأمانة في حفل كبير، وفيه أنشد قصيدته (بغداد يا بلد الرشيد)، التي نالت استحسان جميع الحاضرين»[٢٨].

ج- التصحيحات المنهجيّة واللغويّة والنحويّة، مما فات المؤلفين. وفيهم أسماء لامعة. يقصد من ورائها الفائدة العلمية للمؤلف والقارئ، وليس لغايات أخرى شخصية كما أكد في غير ما موضع من مؤلفاته: «إنّ الإسراف في إحصاء المآخذ، وتصيُّد الزلّات ورصد العثرات، وبخاصة مع شخص قامتْ بينك وبينه خلافات وسوء فهم، لا يمكن أن يحمل على محمل حسن النيّة، فهو أسلوب يفقد البحث موضوعيته وحياده، وهما دثار الناقد وشعاره»[٢٩].

وتتنوع هذه الملحوظات في مادتها بين الآتي:

١- نسبة الشواهد الغُفل، أو تصحيح نسبتها إذا وقع وهم للمؤلف، ولاسيما الشواهد الشعريّة، معزّزًا رأيه بالإحالات. ليس الشواهد المشهورة المتداولة، فهذه أمرها قريب، واستخراجها من مظانّها هيّن وسهل، ولكنه يُعنى بنسبة الشواهد النادرة، ومن مصادر غير متوافرة بكثرة، وأحيانًا لأسماء غير مشهورة كثيرًا في عالم الشعر، ولكنّ ملاحظه النقديّة تتصدى للأوهام وتصحح الأخطاء، من ذلك - مثلاً - ما ورد في ترجمة (عبدالوهاب النائب) من نسبة بيتين له، هما:

عاق تدريسي عن التأليف لكنْ ... فبهذا لستُ أني متأسّفْ
من تلاميذيَ ألّفتُ كتابًا ... كلّ فرد هو بالعلم مؤلّفْ

علّق: «هذا وهم من المؤلف الناقل، فالبيتان المذكوران هما لمحمد فيضي الزهاويّ مفتي بغداد»[٣٠].

وحين نسب بعض المؤلفين اللامية المغنّاة:

يا قامة الرّشأ المهفهف ميلي ... بظماي منك لموضع التقبيل

إلى الشاعر (محمد سعيد الحبوبيّ)، صحح الرشوديّ النسبة قائلاً: «وهذا وهم، فالقصيدة للسيد جعفر الحلّي، المتوفى سنة (١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، والقصيدة في ديوانه **سحر بابل وسجع البلابل**، الذي اعتنى بتحقيقه وقدّم له الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، مطبعة العرفان ١٩١٣م»[٣١].

٢- خدمة الشاهد بالمعلومات التوضيحيّة. وقد أبدع أيما إبداع في تعليقاته على معجم **الآلة والأداة** للشاعر معروف الرصافي، الذي تولى تحقيقه، فكانت هوامشه أحيانًا تنافس متن الرصافي في قيمة ما تقدّمه من معلومات، غربلها من تنقيره في المراجع والأصول، تسعفه ذاكرة يقظة تستحضر الأشباه والنظائر في مواضعها المناسبة؛ فعلى سبيل المثال: ذكر الرصافي (الحابول)، وعرّفه: «وهو حبل يُصعد به على النخل، يُتّخذ من اللحاء والليف...وهو ما يسمّيه أهل العراق تبليه»، فزاد الرشوديّ في الهامش: «جاء في كتاب **البخلاء** للجاحظ ص٢١٢: فطلبوا في الجيران إنسانًا يصعد النخلة، فلم يقدروا عليه، فدلوهم على أكّار لبعض أهل الحربية، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه، فلمّا جاء به ونظر إلى النخلة، قال: هذه لا تُصعد ولا يرتقى عليها إلاّ بالتبليا والبربند... والبربند فارسية معناها الرباط. أمّا التبليا فقد جاء في مقالة للعلامة فرنكل تضمّنت بعض الكلمات الآرامية، وأنها مأخوذة عن كلمة آرامية في لفظها، ومعناها المصعد المصنوع من الحبال»[٣٢].

٣- تصحيح الأخطاء النحويّة والصرفيّة والعروضية والإملائية، وتوثيقها بالإحالة على المراجع اللغوية لتأكيد رأيه، وقلّما خلت مباحثه ومقالاته من وقفات طويلة على هذا الجانب، كقوله لمن روى بيت الرصافي:

أنا ابن دجلة معروف بها أدبي ...... (البيت).

«الصواب روايته... بنصب (معروفًا)؛ لأنه حال أكدت مضمون الجملة التي قبلها، وهو ينظر إلى قول سالم بن دارة:

أنا ابن دارة معروفًا بها نسبي وإن يك الماء فيها ليس يرويني»[٣٣]

ونقده النحويّ واللغويّ عامة لا يتناقض مع منظوره الرحب إلى اللغة، والحاجة الماسّة إلى التطوير والتحديث، كما أكد في أحد تعليقاته على معجم **الآلة والأداة**: «وبعدُ، فحسب الرصافي فضلاً وفخرًا، أنّه تنبّه إلى حاجة الأمة إلى وضع مثل هذا الكتاب في وقت مبكر، فندب نفسه لسدّ هذه الثغرة، بروح اللغويّ المترخّص المتفهّم لحاجات العصر، ومطالب المدنيّة والعمران، فهو يرى أنّ نماء اللغة لا يتمّ إلاّ بفتح باب الاجتهاد اللغويّ، الذي أوصده الجمود والتخلف دون مجاراة اللغة للتيارات الحضاريّة المستجدّة، مع تجدّد وتعدّد حاجات الإنسان، واستبحار العمران»[٣٤]. فالشُّقّة بعيدة في رأيه بين تطوير يحافظ على أصول اللغة وأسسها وخصائصها البنائيّة، وبين العبث والعشوائية في التعامل معها إلى حدّ الاستهانة بكلّ ثوابتها، وفتح باب التغريب على مصراعيه، على نحوٍ يقود حتميًّا إلى طمس هويتها وتلاشيها.

٤- ثمة جانب آخر من منجزه جدير بالتنويه يتعلّق بشخصيته الأدبية، ويتضح في جمالية أسلوبه، وأناقة عباراته في الكتابة، ولاسيما في المقاطع الوصفيّة الوجدانيّة، فتنثال الألفاظ من قلمه حيّة مشحونة بالمشاعر، ترفده ذائقة فنيّة خبيرة صقلتها القراءة النقديّة للروائع وأسرارها، فتأثر بها وأحسن تمثُّلها في كتاباته المقاليّة على نحو خاص؛ كقوله في وصف أول لقائه بالأديب (مصطفى علي): «قُدّر لي أنْ أراه أول مرة سنة ١٩٤٨م، وهو يجتاز سوق السّراي، وقد أشار إليه صديق لي قائلاً: هذا هو مصطفى علي الذي تنشد، فوقع نظري على رجل ربعة في الرجال، ممتلئ الإهاب، ربما تحيّف عرضه شيئًا من طوله، أسمر البشرة، دقيق تقاطيع الوجه، سريع الخطا رغم بدانته، حتى كان يبدو لرائيه وكأنّه يثب في مشيته وثبًا، فملأتُ عيني منه، وصارت صورته لديّ معروفة مألوفة كلّما بدتْ لي في مؤتنف الأيام»[٣٥].

ووصف (الجواهري) في لحظة وفاته بأنّه: «كالنسر المحتضر في السفح، وعينه ترنو إلى قُنن الجبال، لقد كان الجواهري عظيمًا في حياته، عظيمًا في

موته، عظيمًا في شعره... وإذا صحّ قول الحكماء إنّ العبقري يولد يوم يموت، فإنّ السابع والعشرين من تموز ١٩٩٧م هو يوم ميلاده الثاني، الذي يستعصي على الموت والفناء»[٣٦].

كما انفعل من قبلُ في لحظة موت مهدي المخزوميّ، فقال يصفها: «عاش في خدمة اللغة العربية ونصرتها، ومات تلك الميتة الشاعريّة، وهو يشرح مسألة سأله عنها تلميذه الدكتور زهير غازي زاهد، فكان آخر كلامه فيها، أرأيت شهادة في سبيل العربية أروع وأنصع من هذه الشهادة؟»[٣٧].

رحم الله الرشوديّ، العالم النزيه المخلص، أحد عشّاق العربيّة وسدنتها في عصرنا.

الهوامش:

(*) **الجامعة المستنصرية - كلية التربية.**

(١) ينظر: مقال الناقد (شكيب كاظم) (عبدالحميد الرشودي يدرس حياة الرصافي وآثاره وشعره)، **جريدة التآخي**، بغداد، ٢٠١٣/١٠/٢٤م، منشور على موقع شبكة النت.

(٢) (من أوراق عبدالحميد الرشوديّ)، مقالة له منشورة في **ملحق جريدة المدى** (ذاكرة عراقية)، على موقع شبكة النت.

(٣) ينظر: مقال الأستاذ (رفعة عبدالرزاق محمد) (عبدالحميد الرشوديّ... شخصيات في حياته)، **جريدة الصباح**، بغداد ٩/ ٢٠١٥/١٢م، محمول على شبكة النت.

(٤) **بغداد في الشعر العربيّ المعاصر**، عبدالحميد الرشوديّ، ط١، دار المدى ٢٠١٤: ص٢٠٣- ٢٠٤.

(٥) (مؤرخ العراق الكبير عباس العزاويّ)، مقالة له منشورة في ملحق **جريدة المدى** (عراقيون)، على موقع شبكة النت.

(٦) **مصطفى علي**، عبدالحميد الرشودي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩م: ص١٣.

(٧) م.ن: ٢١.

(٨) **الرصافي: حياته، آثاره، شعره**، عبدالحميد الرشوديّ، ط١، ١٩٨٨م: ص١١٣.

(٩) **مصطفى علي**: ٧-٨.

(١٠) **مجلة الذخائر**، العدد ٢١، ٢٢، بيروت – لبنان: ٢٥٨- ٢٥٩.

(١١) صدر في طبعة جديدة عن (دار الحكمة)، لندن ٢٠١٦.

(١٢) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**: ٢٢، هامش ٤٤.

(١٣) مقاله المنشور في **جريدة الزمان**، ٢٨- ١٢- ٢٠١٤ (تصحيحات واستدراكات على لواعج مؤلف)، منشور في شبكة النت.

(١٤) **رسائل الرصافي**، إعداد وجمع وتحقيق عبدالحميد الرشوديّ، ط٢: ص١٨٤.

(١٥) م. ن: ١٩٣.

(١٦) مقاله (تصحيحات واستدراكات)، المنشور في **جريدة الزمان**.

(١٧) م. ن.

(١٨) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**: ٨٤.

(١٩) م. ن: ١٤٤.

(٢٠) **رسائل الرصافي**: ١٨٥.

(٢١) م. ن: ١٩٠.

(٢٢) **أعلام الأدب في العراق الحديث**، مير بصري، لندن ٢٠١٦: ج٣/ ٣٨٤.

(٢٣) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**: ٩٧.

(٢٤) **رسائل الرصافي**: ١٨٤.

(٢٥) تنظر: **رسائل الرصافي**: ١٧٦- ٢٠٢.

(٢٦) مقاله (على هامش الذكرى ٢٨ لرحيله: أنور شاؤول صحفيًا)، ملحق **جريدة المدى** (ذاكرة عراقية)، منشور في شبكة النت.

(٢٧) **أعلام الأدب في العراق الحديث**: ج٣/ ٢٨٣.

(٢٨) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**: ٣٩.

(٢٩) **مجلة الذخائر**، العدد السابق: ٢٦٠.

(٣٠) **أعلام الأدب الحديث**: ج٣/٣٨٥.

(٣١) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**: ٤٨.

(٣٢) **الآلة والأداة**، الرصافي، تحقيق الرشودي، ط١، بغداد: ٨٠.

(٣٣) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**:٢١٧.

(٣٤) **الآلة والأداة**:٤٩٧.

(٣٥) **مصطفى علي**: ٩.

(٣٦) **بغداد في الشعر العربي المعاصر**:٢٦.

(٣٧) مقاله (الدكتور مهدي المخزومي وجهوده في الدراسات النحوية واللغوية)، منشور في ملحق **جريدة المدى** (عراقيون)، محمول في شبكة النت

واقع اللغة العربية
قراءة في عوامل الانحراف، وأسباب التنكر

د. آمنة بن منصور(*)

عرف العرب قيمة العربية، فأحبوها وأجلُّوها؛ إذ هي لغة الرسالة السماوية الخالدة، فضلاً على أنها لغة الآباء والأجداد التي سجلوا بها ما جادت به القرائح من محاسن الشعر وروائع النظم ونفائس الكلام: حكمًا وأمثالاً، قصصًا وأخباراً... ومما لا يسع المجال لحصرها جميعًا.

ثم خلَف من بعدهم خلْف، ضيعوا العربية وراحوا يبحثون عن البديل، فلا هم حافظوا على ألسنتهم صافيه، ولا هم أخذوا بتلابيب تلك اللغات، فتكلموا وكتبوا بلغة غثَّة تمجُّها الأذن العربية الفصيحة.

ولعمري ماذا كان يصنع ابن جني أو الخليل أو الكسائي وسائر علماء اللغة الأقدمين، لو وقعت أعينهم على المجازر المرتكبة في حق العربية اليوم؟ وهم الذين دعوا إلى عدم الاحتجاج ببعض الشعراء المولَّدين لوقوعهم «في أغلاط كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها على وجه مقبول، فهذا أبو تمام يقول:

لعذلته في دمنتين تقادما ... ممحوّتين لزينب وسعاد

والصواب: تقادمتا»(١).

ملاحظة التنكر:

إن المتفحص لأحوال بني الضاد اليوم، يرى عيانًا كيف قام هؤلاء بخصخصة الفصحى لصالح المعاجم، ثم خصخصة هذه الأخيرة لصالح المكتبات ورفوفها.

ولئن كانت الألفاظ في الأيام الخالية توسم بضعفها وانحرافها عن الفصيح إذا انحرفت في حركة أو حرف قياسًا على ما سمع عن فصحاء العرب، كقولهم: «انتقع لونه لغة ضعيفة في امتقع...ولغِب بالكسر يلغَب ضعيفة في لغَب يلغُب»[٢].

فإن في أيامنا هذه تجاوزت الانحرافات اللغوية، الحروف والحركات إلى الكلمات وحتى الجمل، ولم يعد الدخيل وحده المنافس للفصحى، فهذا الشعر أصبح ملحونًا، وله أعلام هم أعلام الشعر الملحون، وها هي العامية تبسط عرشها على مجاري ألسنة الناس كبارهم وصغارهم، عالِمهم وجاهلهم، والأدهى من ذلك دعوة بعضهم لتفعيلها على المستوى الرسمي والكتابي، وأما الفرنسية والإنجليزية فحدث ولا حرج...

الفحص الشفوي والكتابي:

يقول الدكتور محمد مصايف: «لعل مشكل اللغة ليس مطروحًا في المشرق بقدر ما هو مطروح في المغرب العربي، وخاصة في الجزائر»[٣]. ولهذا الكلام ما يؤيده على أرض الواقع، فقد كشفت الملحوظات اليومية أن الفرد الجزائري يعاني عدم القدرة على تبادل الحوار بالفصحى دون الاستعانة بكلمات عامية أو فرنسية.

وليس الخطاب المكتوب أحسن حالاً من المنطوق؛ «فالمتفرس في أدب هذه الأيام العجاف لا يرى فيه بتة ملامح الإسلام ولا العروبة، ولا أشواق أمة تكافح عن رسالتها، وسياستها القومية وثقافتها الذاتية، ما الذي يراه في صحائف هذا الأدب؟ لا شيء إلا انعدام الأصل، وانعدام الهدف والتسول من شتى الموائد الأجنبية»[٤].

من المفارقات أن يكون دعاة الهدم، بعض رجال الثقافة والأدب، فهذا مصطفى الأشرف يدافع عن الأدب الشعبي؛ إذ يراه الوحيد في الجزائر الذي يعد أدبًا يستجيب لضرورة التعبير في اتجاه التحرر الوطني، بل إنه يلوم الساسة الذين يستخدمون الفصحى في خطبهم»[٥].

ولن نتحدث عن الإبداعات التغريبية التي تزعَّمها بعضهم، واستقبلها النقاد بحفاوة بالغة، وعبثًا يحاول أدباؤنا تقليد الغرب، ينهلون من آدابهم، ويحاكون أساليبهم، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٦].

وإذا تحدثنا عن الإعلام ووسائله، فحديث بلا شجون، لا القنوات الأرضية ولا الفضائية - مع كثرتها - تولي كبير اهتمام - بل أدناه - للفصحى وسلامة اللغة عمومًا، فالذي «نلاحظه في بعض الدول العربية هو أن تلك الأفلام التربوية المقدمة للناشئة هي في غالب الأحيان، تقدَّم بلغاتها الأصلية (فرنسية، إنجليزية)، وهي في أحسن الظروف تترجَم كتابةً إلى العربية»[٧]، بل إن منها ما يُترجم إلى اللهجة المحلية لتلك البلاد.

هذا وليست الصحافة المكتوبة أفضل حالاً، تلك التي «وجدت متنفَّسًا لها في التعددية... وطغت عليها الصحافة الفرنكفونية، إلى درجة أنها أصبحت أضعاف الصحف العربية»[٨]، التي لم تعد هي الأخرى تعنى بسلامة اللغة التي تكتب بها وتنسب إليها.

ولا تزال اللغة العربية في أذهان الكثيرين حجر عثر أمام زوار مقاهي الإنترنت؛ إذ شاع بينهم صعوبة استعمال الحرف العربي، مع أن أحد الخبراء فند ذلك بقوله: «إن مكونات اللغة العربية كأنما وضعت لعصر الإلكترون، فقد استوعبها الكومبيوتر بثلاث محاولات بدلاً من ست وعشرين»[٩].

والميمِّم وجهه صوب اللافتات في الشوارع والمحلات، وأسماء المعارض والمدارس... يدرك أنه في دولة أوروبية لا عربية.

لقد بتنا فعلاً عربًا بلا عربية، أو عربية بلا عرب، بالأمس فقط كانوا «موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام، والفصاحة في النطق، والذلاقة في اللسان»[١٠].

ولكن كما قال الشاعر:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

قراءة في أسباب التنكر:

يتأثر النظام اللغوي بما لا يدع مجالاً للشك بالنُّظم الاجتماعية المحيطة به، وكذلك السياسية والاقتصادية والتاريخية والنفسية.

ويمكن تلخيص الأسباب التاريخية في عامل الاستعمار الذي لم يتغير أسلوبه منذ وُجد، فهو أينما حلَّ ونزل نقل عاداته وتقاليده ومعتقداته ولغته.... إلى تلك البلاد المستعمرة، ليفرضها على شعوبها عَنوة، وسنضرب مثلاً بإحدى كبريات الدول الاستعمارية: فرنسا، التي عمدت في مستعمراتها إلى القضاء على الدور الرئيس للغة الأم، ثم إحلال اللغات الأجنبية مكانها، وأخيرًا إحياء اللهجات وتشجيعها، مع الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية[١١].

هذا وقد أبقت الإدارة الفرنسية على تعليم العربية، ولكن في حدود ضيقة، مجزِّئة إياها إلى جزأين:

- عربية عامية حديثة (مودرن) نحو: ذهبت إلى المرشي، بدل السوق، وهذه اللغة هي التي كانت تعلمها للأطفال في المدارس، كما دعت إلى التأليف والنشر بها.
- عربية فصحى قديمة (كلاسيك) وهي لغة امرئ القيس الآيلة للسقوط لا محال[١٢].

كما عمدت الإدارات الاستدمارية إلى تكوين شباب مثقفين، يؤمنون بالغرب في حضارته وماديته، ويخلصون له في يومه وغده، مستغلة في ذلك فئة الأطفال اليتامى والمحرومين، الذين دأبت على تنصيرهم.

وإلى جانب الاستعمار هناك أسباب تربوية، تتعلق أساسًا بالمجتمع الذي أصبح يعلم أبناءه كل شيء وأي شيء إلا لغته القومية، «إنها خلوف يتفرس المرء فيها، فتغمر قلبه كآبة ثقيلة»[١٣].

واعجبْ حين تصبح الرطانة باللغات الأجنبية من مظاهر التمدن والتحضر، ويحضرنا هاهنا قصة أحمد أمين في رحلته الطويلة للبحث عن زوجة، يقول: «فأحببت أن أريهم أني متمدن، وذهبت إليهم أحمل كتابًا إنجليزيًا، وجلست إليهم وجلسوا إليَّ وتحدثت...حديثًا عصريًا على آخر طراز، وحشرت في كلامي بعض كلمات إنجليزية، فاستغربوا لذلك، وفهمت أنهم أعجبوا بي ورضوا عني»[١٤]، غير أن الفتاة رفضت ما إن رأت زيه العربي (جبة وقلنسوة).

يقول عبد الصبور شاهين: «أساتذة اللغات في الغرب هم أفضل الأساتذة، ولا أود أن أتحدث عن وضع أستاذ اللغة العربية في المدارس العربية، الغرب أراد أن يدفعنا لاحتقار الذات، لأننا للأسف احتقرنا لغتنا، وكما نرى فإن قضية التعريب مرتبطة بمجموع الكبرياء القومي»[١٥].

وما من شك أننا حين نتحدث عن المجتمع كمؤسسة بشرية، حتمًا نتحدث عن خليته الأساسية المتمثلة في الأسرة، فمن هنا يبدأ التنصل والتنكر للغة القومية، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه»[١٦].

فكما أن الأبناء يتبعون ملة آبائهم، كذلك يتعلمون منهم لغاتهم وسائر عاداتهم، ذلك أن «اكتساب اللغة مرتبط بالأم؛ فهي التي تناغي طفلها، وتدربه على الأصوات اللغوية حتى يستوي لسانه، وتستقيم مخارج حروفه على الوجه الصحيح الذي تعارفت عليه البيئة»[١٧].

ثم «تعرض للطفل صعوبات جمة حين يبدأ المرحلة الإرادية في تقليد نطق أبويه أو مَن حوله من الكبار»[١٨]، إلى أن يملك ناصية اللغة أو ما يظن كذلك، فإذا أهمل الآباء تلقين أبنائهم اللغة الأم في الصغر، هل تستقيم لها ألسنتهم في

الكبر؟ وقد قال الشاعر:

إن الغصون إذا عدَّلتها اعتدلت ولا تلين إذا كانت من الخشبُ

وياليت شعري، أمِنَ الناس اليوم من يسهر على تلقين أبنائه اللغة العربية، لا أقول أصولها ونحوها وآدابها، ولكن فقط حروفها؟ إنما يتركون ذلك للمدرسة، والمدرسة حديث آخر.

يقول أحمد أمين متحدثًا عن والده: «فرتَّب لي دروسًا في النحو، واختار لي من كتبه طبعات ليس عليها حواشٍ، قرأ لي **شرح الآجرومية**،ثم كتاب **قطر الندى**، وكتاب **شذور الذهب**، وإلى جانب ذلك قرأ لي كتاب **فقه اللغة** للثعالبي، وشرح لي بعض **مقامات الحريري** في الأدب، وليست دراسة اللغة والأدب مما يُعنى بها الأزهر، ولكن عُني بها أبي»[١٩].

الواقع أن مجتمعنا اليوم فئتان ـ إلا من رحم الله ـ فئة أمية لا تُعنى بتلقين أبنائها اللغة الأم، أو غيرها من اللغات، وفئة مثقفة تهتم بتلقين أبنائها اللغات الأجنبية، وقد ترسلهم إلى الدول الأوروبية لينشؤوا على شاكلة أفرادها.

وإلى جانب الأسرة والمجتمع، تتحمل المدرسة هي الأخرى مسؤولية ما يحدث للغة الضاد، بل هي المسؤولة الأولى، وإلا فإننا «لا نجد بلدًا يلقِّن لناشئته المعارف والفنون في المرحلة الابتدائية بلغة غير الوطنية»[٢٠].

وإنه لمن الظلم بمكان «أن نحمِّل التلميذ مسؤولية فشله في إتقان اللغة العربية، إذا كانت المدرسة نفسها تعلمه لغتين أجنبيتين (الفرنسية والإنجليزية)، ثم يستعمل العامية في البيئة التي يعيش وسطها»[٢١]. وفي هذا السياق يقول المربي الإنجليزي نيقولا هانز في كتابه **التربية المقارنة**: «هناك فوضى كبيرة تحدث لأولئك الذين يستخدمون اللغة الأجنبية كأداة للتعليم في مدارسهم بدل لغتهم القومية، مما يؤدي إلى ما يمكن تسميته بالعقل المبلبل، أي تبلبُل الأفكار بسبب تبلبل اللغات»[٢٢].

وهذا يعني أن التلميذ العربي يواجه مشكلتين في أولى مراحل تعليمه: مشكلة الازدواج اللغوي، ثم «التفاوت الواضح بين لغة الكلام الطبيعي أو الاعتيادي (العامية)، ولغة الكتابة والقراءة والإلقاء (الفصحى)»[٢٣].

والنقطة الأخرى التي يجب إثارتها: برامج وطرق تدريس العربية، يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: «إن جميع المناهج والكتب المدرسية وطرق التدريس في البلاد العربية لا تؤدي إلى التفكير العلمي المرغوب، وكل الندوات التي عقدت في الوطن العربي لإصلاح المناهج التربوية كانت تنطلق من منطلق الترقيع والتلفيق، وليس الإصلاح الجذري، وهو ما جعلها تفشل في كل مرة»[٢٤].

والواقع أن «حل المشكلة ليس منوطًا بزيادة ساعات التدريس، أو بإغراء الطلاب بمزيد من العلامات، أو إنذارهم بحرمانهم من الكثير منها، وإنما هو منوط قبل كل ذلك بالعمل على تأسيس ذوق الأدب العربي في نفس الطفل عن طريق التعهد والممارسة الطويلة»[٢٥]، ذلك أن «التعليم الصحيح والسليم الناجح للغة يكون بالممارسة؛ أي الفعل وتكراره، وهو تعريف العلماء العرب القدامى، والفعل وتدريبه عند المحدَثين»[٢٦].

هذا حال العربية في الأطوار الأولى للتعليم، أما حالها في الجامعة فلا يسر عدوًا ولا صديقًا، «فما أكثر ما نشكو من أن اللغة العربية ليست لغة تعليم، وما أكثر ما نضيق ذرعًا باضطرارنا إلى اصطناع اللغات الأجنبية في التعليم العالي، ولكن ما أقل ما نبذل من الجهد لنجعل اللغة العربية لغة التعليم»[٢٧]، و«ليس من المبالغة أن نقول بأنه لم تظلم لغة في التاريخ من طرف الناطقين بها، كما ظلمت اللغة العربية في عصرها الحاضر.. عندما نعلم أن أصغر دولة تحترم شخصيتها على وجه الأرض... تدرس جميع العلوم في جامعاتها باللغات الوطنية الخاصة بهذه الأمم، ونحن ما نزال نصر على تدريس كل المواد العلمية في جامعاتنا العربية باللغات الأجنبية»[٢٨].

ويضاف للأسباب المذكورة آنفًا، السبب النفسي، ونعني به الشعور بالنقص الذي يلاحق الفرد العربي المعاصر منذ أن نزلت به نازلة التخلف، يقول ابن خلدون: «إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه»[٢٩].

إن العربية اليوم هي ضحية شعورنا بالنقص، فأنت ترى الشاب أو الشيخ يقبل من أوروبا، حاملاً معه الشهادات العليا، يجلس إليك مؤمنًا بنفسه، جاحدًا بأدبه، وبمن يملأ فاه بالقاف والطاء وسائر الحروف الغلاظ»[٣٠].

ومن الأمثلة ما نلحظه عند قدوم ضيف أجنبي لزيارة رسمية للبلاد، حيث يغير الجميع لسانهم ولغتهم ويرطنون بلغته، مع أننا نضطر عند زيارتهم للتكلم بلغاتهم.

يقول الأستاذ فهمي هويدي: «لأن التلفزيون الأمريكي هو الأنجح والأكثر إبهارًا؛ فقد كان طبيعيًا أن يغدو أكثر تأثيرًا في اللغة.. وإذا كانت دولة كفرنسا قد شكت مما أسمته بالغزو الثقافي الإمبريالي، وهي جزء أصيل من الغرب، حتى إنها دعت إلى حماية لغتها، ولو بإدخال الناس السجون»[٣١]، ولنا أن نتصور صدى مثل ذلك الغزو في مجتمعاتنا بعد الذي أصابها من هشاشة وضعف في بنيتها الثقافية وانتمائها الحضاري.

نحن والترجمة والتعريب:

بضاعتنا ترد إلينا، كيف ذلك؟

«إن هذه الألفاظ التي رحلت إلى بلاد الغرب، واختلطت بلغاته قد رجعت إلينا مرة أخرى في شكل إعادة اقتراض، ولكن المرحلة الحضارية التي نعيشها مرحلة تسجل انهزامنا أمام معطيات الغرب الثقافية والصناعية، فإذا بكلماتنا لا تعود إلى أصلها، ولا تنطق كما كانت، بل كما هي في اللغة

الأجنبية»[٣٢]، مثال ذلك: أمير البحر أصبحت: أميرال، وصك أصبح: شيك، وحبل أصبح: كابل وجمعوها على كوابل، وقد لا تقع الموقع الحسن في نفوس بعضهم إذا علموا أصلها العربي.

وكثيرًا ما نجد صعوبة في ترجمة بعض الكلمات أو نقلها إلى العربية، أكثر مما لو بحثنا لها عن بديل، حيث جرت العادة، خاصة لدى أصحاب الشركات والمصانع، أن يترجموا كيفما اتفق، فتأتي الكلمات ركيكة مستهجَنة.

ولعل «سبيل المجاز عندنا أوسع من أن نحتاج فيه إلى النقل من اللغات الأخرى.. ولكن المترجمين ينقلون أحيانًا عبارات مستغربة لا تقع في الأذواق موقعها الحسن.. ومن ذلك قولهم: إن هذا أو ذاك يلعب دورًا خطيرًا في السياسة أو التاريخ.. بل قد يقول القائل: إن الدين يلعب دورًا جدِّيًّا في المسائل الاقتصادية.. والأصل في مادة اللعب عندنا يرجع إلى المهازل الصبيانية»[٣٣].

قال الشاعر العربي:

أمرتُكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ترانا سنستبينه يومًا؟ أيكون يومًا قريبًا؟ أم ستدركنا الأيام تلو الأيام ودار لقمان على حالها؟

مظاهر الانحراف اللغوي:

كانت العرب قديمًا تحيا في قبائل موزعة على أرجاء الجزيرة العربية، بعضها اختار الصحراء ليضرب الخيام في بطونها، وبعضها الآخر أقام البيوت والمنازل على السواحل وضفاف الأنهار، بينما آثرت قبائل كثيرة الحِلَّ والترحال على حياة الاستقرار، بحثًا عن مواطن الكلأ وأسباب العيش.

وليس من شك في أن هذه البيئات واختلاف مناحيها الاجتماعية، وظروفها المناخية يتبعه حتمًا تمايز في اللهجات واللغات.

بيد أنه لم تكن تلك الاختلافات اللهجية -في الغالب- تجاوز حيز الأصوات من جهر وهمس وشدة ورخاوة... وأقصاها اختلافات طفيفة في بعض المعاني، كأن يكون الاختلاف من قبيل الترادف.

وهذا بلا شك قد انسحب على لهجاتنا الحديثة، ولكن بشكل أعمق، فهي لا تكاد تتفق على مدلول كلمة واحدة، إلا واختلفت في عشرات المدلولات، وقد يرجع السبب إلى الاحتكاك باللغات الأخرى، لأن ذلك من شأنه أن «يعرِّضها لأن تفقد خصائصها الموغلة في الذاتية، والتأثير الذي يقع عليها من الخارج يؤدي بها إلى التغير السريع»[٣٤].

المظهر الصوتي:

يربط إبراهيم أنيس الاختلافات الصوتية بين القبائل العربية القديمة بالبيئة؛ إذ كانت البيئات المتحضرة تجنح إلى الأصوات الرخوة، في حين أن البيئات البدوية تميل إلى الأصوات الشديدة الملائمة لظروف معيشتها الصعبة[٣٥].

ويمكن حصر أبرز الانحرافات الصوتية التي تميز هذه العاميَّات في:

- زيادة حرف كما هو الحال في راجل بدلاً من رجل.

- إبدال بعض الحروف بأخرى أسهل في النطق؛ مثل: بحتر في بعثر.

- أو تخفيف النطق بإبدال المضعف ياءً مثل: مديت، حطيت.

- أو يكون التخفيف ناشئًا عن النحت؛ مثل: أيش بدّك: أي شيء بودك.

- أو من الإبدال؛ مثل: دحك في ضحك...[٣٦].

ومن المظاهر الصوتية الأخرى: قلب الثاء تاءً أو سينًا؛ كقولهم: توم في ثوم، وتلج في ثلج، وقول أهل مصر: سَوْرة في ثَوْرة، ومسقَّف في مثقف...

ومنها قلب الصاد سينًا، فبالنظر إلى تقارب مخرجي الحرفين بات «من الصعب التمييز بين الصاد المنقلبة عن السين والصاد الأصلية... وهذه الظاهرة

الصوتية لم تخل منها أية لهجة من اللهجات الحديثة»[٣٧]، حتى إن معظمنا يقول صورة الإخلاص يريد سورة الإخلاص.

ومنها أيضًا الخطأ في نطق الضاد، فأحيانًا تنطق «ظاء بين أسنانية كما هي الحال عند كثير من أهل العراق.. وهي تنطق في كثير من المدن العربية كالقاهرة ودمشق دالاً مفخَّمة»[٣٨].

وللضاد عندنا ميزة خاصة، كيف ذلك؟

يرى إبراهيم أنيس أن السرَّ في الضاد العربية يكمن في قدرتها على تغيير الدلالة حال تفخيمها أو ترقيقها، كالضرع والدرع، في حين توجد أصوات شبيهة بالضاد العربية في اللغات الأجنبية؛ مثل: (Darling-Does)، لكنها سواء رُققت أو فُخمت تبقى فونيمًا واحدًا، لا تتغير الدلالة بتفخيمه أو ترقيقه، وهذه الظاهرة نراها أيضًا في الصاد والطاء والظاء؛ أي حروف الإطباق جميعها[٣٩].

المظهر الصرفي:

وضع أئمة اللغة وفقهاؤها ميزانًا صرفيًا يضبط اللغة العربية، ويقيها الانحراف، معتمدين على القاعدة المشهورة «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»، كأنْ يُبنى من ضرب مثل جعفر، فيقال: ضربب ولو بني مثله ضيرب أو ضورب أو ضروب ونحو ذلك، لم يعتقد من كلام العرب؛ لأنه قياس على الأقل استعمالاً[٤٠].

لكن انظر إلى اجتهادات المجمع اللغوي الداعية إلى «الاعتراف بالمولَّد والدخيل، وعدّهما عربيين؛ لأنهما يجريان على الصيغ العربية»[٤١].

وإذا غضضنا الطرف عن المولَّد؛ لأن مادته عربية نحو جريدة، فكيف نقول بعروبة الدخيل وعُجمتُه واضحة؟ كيف ندعي أن كلمة بالون مثلاً عربية؛ لأنها ببساطة على وزن فاعول؟.

ثم انظر إلى ما جادت به القرائح العربية المعاصرة، كلمات ذات أوزان عربية ومعان غربية، منقولة حرفيًا من تلك اللغات؛ نحو قولهم: رسكلة وفبركة وكادر وجمعها كوادر.. ويقابلها على الترتيب:-RECYCLAGE- FABRIQUER- CADRE.

ومن الأخطاء الشائعة في وسائل الإعلام، وفي بعض المؤلفات: قولهم: رجل خَلوق عوض ذو خُلق، والخَلوق نوع من الطيب، وبدل قَبول الطلبات يقولون قُبول، والقُبول عكس الإدبار، ويقال: الآذان في الأذان، والآذان جمع أُذُن...

المظهر التركيبي:

كانت العرب تُعنى بسلامة التركيب وفصاحة الكلام أكثر من أي شيء آخر؛ قال ابن مالك في **ألفيته**:

كلامنا لفظٌ مفيد كاستقمْ واسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكلِمْ(٤٢)

غير أن الشذوذ عن المعيار واللغة أصبح اليوم لسانَ حال العرب المعاصرين؛ يقول أحد العابثين بالكلمات:

آن الأوان

لأروح في السيجا قويَّ الجأش

لأروح تحت البواكي أملأ السيجا مرابيع النجوم

قوس الجنازة الذي

يمتد في قوس البيوت الواطئة

الصاغة الملثمون والحلب.. النسوة الحبالى

ولعمري « كأن جامع الحروف التقط كلمات من على الأرض ورصَّها كيفما اتفق، وتحت عنوان وشم العاشق سمي هذا الخليط الكيمياوي شعرًا»(٤٣).

وأما الهذر في الإعلان، فحدِّث ولا حرج، ولقد بات من الضروري صرف العناية والاهتمام إلى الصياغة اللغوية الخاصة بالإعلانات التجارية التي أصبحت تغذي الانحراف اللغوي بكل أطيافه، من قبيل (لما تسك ماحتفك) وغيرها كثير كثير!

إن الجملة المفيدة في العامية لا وجود لها «وذلك لتلاشي الروابط والعوامل، فتبرز الصورة الكلامية كتلة واحدة، كما أن التركيب المنطقي الذي نلاحظه دائمًا في الجملة المكتوبة يتعطل في الجمل المحكية، إن قليلاً أو كثيرًا»[٤٤].

المظهر الدلالي:

يتداول العامة كلمات وألفاظًا لها أصول في الفصحى، مع اختلاف واضح في المعنى والدلالة؛ من أمثلة ذلك: «الهركول والهركلة عند العامة استرخاء الجسم وعدم انتظام في اللباس، وإهمال في الهندام، أما معنى الهركلة والهركولة والهركيل في اللغة، فهي الحسنة الخلق والجسم والمشية»[٤٥].

ومن قصور العامية: اقتصار اللفظ على دلالة واحدة لا يتعداها، بينما في الفصحى تشترك عشرات المعاني في لفظة واحدة، وهو ما يعرف بالمشترك اللفظي. «قال ابن خالوية في **شرح الدريدية**: العين تنقسم ثلاثين قسمًا. وذكر منها: العين خيار كل شيء»[٤٦]. والعين في العامية لا تخرج عن العين الباصرة، أو عين الماء. ولا بأس أن نورد مثالاً عن المشترك اللفظي لبطرس كرامة، يقول:

أمن خدها الوردي أفتنك الخال ... فسحَّ عن الأجفان مدمعك الخال
وأومض برق في محيَّا جمالها ... لعينيك أم من ثغرها أو مض الخال
رعى الله ذيَّاك القوام وإن يكن ... تلاعب في أعطافه التيه والخال
مهاة بأمي أفتديها ووالدي ... وإن لام عمي الطيِّب الأصل والخال

والمعنى على الترتيب: الشامة، السحاب، البرق، الشموخ، أخ الأم»[٤٧].

والخال في العامية أخ الأم لا غير[*].

وخلاصة القول: إن الناس في تنكُّرهم للعربية مستويات، لكن يتعاظم البلاء حين يتعلق الأمر بالمثقفين والساسة، وأما الداعون إلى ترسيم العامية، فقد دحضتها دراستنا لمظاهر الانحراف، فتداخُل الأصوات، والإخلال بالقواعد والتراكيب، وعدم ترابط الجمل، وقصور الألفاظ عن أداء المعاني المختلفة...كل هذا جعل العامية لا ترقى إلى مستوى الكتابة والتعبير الفصيح، ولا تراوح مكانها الذي وُضعت له، وهو تسهيل التواصل بين فئات الناس المختلفة في أحاديثهم اليومية لا غير.

ثم إن الأمر أخطر وأكبر من مجرد مشكل لغوي، فعلى مرأى منا نشاهد كيف ينفق الغرب الأموال الطائلة في سبيل ترسيخ لغاته والحفاظ عليها، بل ونشرها في المعمورة؛ لأن اللغة هي الهوية والسيادة والانتماء.

الهوامش:

(*) جامعة تلمسان ـ الجزائر

(١) **القياس في اللغة العربية**: محمد الخضر حسين، ص٤٥.

(٢) **المزهر في علوم اللغة**: السيوطي: ج١، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) **القصة العربية الجزائرية في عهد الاستقلال**: ص ١٢٨.

(٤) **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**: محمد الغزالي ص ٩٥.

(٥) ينظر **الفرنكفونية مشرقًا ومغربًا**: عبد الله الركيبي ص ١٠٨.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٧) **التعريب بين المبدأ والتطبيق**: أحمد بن النعمان ص ١٨٦.

(٨) **الفرنكفونية مشرقًا ومغربًا** ص ١٧٥.

(٩) **التعريب بين المبدأ والتطبيق** ص ١٨٦.

(١٠) **فجر الإسلام**: أحمد أمين ص ٥٦.

(١١) ينظر **الفكر العربي بين الاستلاب وإثبات الذات**: عبد الكريم غلاب ص ١٨٠-١٨١.

(١٢) ينظر **ابن باديس**: تركي رابح ص ١٤٦.

(١٣) **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** ص ٣٧.

(١٤) **حياتي**: أحمد أمين ص ١٦٨.

(١٥) **اللغة العربية لغة العلوم والتقنية** ص ٣٢٩.

(١٦) رواه البخاري ج١ ص ٤٦٥.

(١٧) **محاضرات في علم النفس اللغوي**: حنفي بن عيسى ص ١٤٠.

(١٨) **الأصوات اللغوية**: إبراهيم أنيس ص ٢١٨.

(١٩) **حياتي** ص ٨١.

(٢٠) **التعريب بين المبدأ والتطبيق** ص ١٨٨.

(٢١) **التأخر اللغوي لدى تلاميذ السنة التاسعة**: رشيد مرجانة ص ٤٤.

(٢٢) **أصول التربية والتعليم**: تركي رابح ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٢٣) **مشكلات تدريس العربية في مرحلة الدراسة الثانوية**: صالح الطعمة ص ٢٩.

(٢٤) **التأخر اللغوي** ص ١٠٢.

(٢٥) **تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث**: محمد سعيد رمضان البوطي ص ٩٩.

(٢٦) **النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة**: حسين بن زروق ص ١٤١.

(٢٧) **في الأدب الجاهلي**: طه حسين ص ١٣.

(٢٨) **التعريب بين المبدأ والتطبيق** ص ١٣٦.

(٢٩) **المقدمة**: عبد الرحمن بن خلدون ج١ ص ٢٣٨.

(٣٠) ينظر **حديث الأربعاء**: طه حسين ج١ ص ١٣-١٤.

(٣١) **حزب البعث الفرنسي**: أحمد بن النعمان ص ٢٢٦.

(٣٢) **اللغة العربية لغة العلوم والتقنية** ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٣٣) **أشتات مجتمعات في اللغة والأدب**: العقاد ص ١٢١-١٢٢.

(٣٤) **الإبدال في اللغة العربية**: مولاي عبد الحفيظ طالبي ص ٢٣٣.

(٣٥) ينظر **الأصوات اللغوية** ص ٢٣٥.

(٣٦) ينظر **اللهجات العربية في التراث**: أحمد علم الدين الجندي ص ١٣١.

(٣٧) **دراسة لهجية لمنطوق السواحلية**: أحمد قريش ص ٣٤.

(٣٨) **كلام العرب من قضايا اللغة**: حسن ظاظا ص ٢٥-٢٦.

(٣٩) ينظر **الأصوات اللغوية** ص ٥٠.

(٤٠) ينظر **الخصائص**: ابن جني ج١ ص ١١٤.

(٤١) **في قضايا فقه اللغة العربية**: صالح بلعيد ص ١١٠.

(٤٢) **شرح الألفية**: ابن الناظم ص ٢٠.

(٤٣) **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** ص ١٠٠.

(٤٤) **التعريب بين المبدأ والتطبيق** ص ١٤٢.

(٤٥) **قاموس رد العامي إلى الفصيح**: أحمد رضا ص ٥٧١.

(٤٦) **المزهر** ج١ ص ٣٧٣.

(٤٧) **في قضايا فقه اللغة العربية** ص ١١٥-١١٦.

(*) **العرب**: في عامية الجزيرة العربية للخال معانٍ أخرى غير أخ الأم، منها الشامة وغيرها. أ. م. ض.

كتاب الدكتور عبدالعزيز المانع (على خطى المتنبي) من الفكرة إلى الإنجاز(*)

بقلم: أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق

دعا الدكتور زيادُ بن عبدالرحمن السديري عددًا من الأكاديميين والأدباء لحضور فعاليات منتدى والده الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري للدراسات السعودية بالجوف في شمال المملكة، وذلك خلال الفترة من ٢٦-٢٨ من شهر نوفمبر ٢٠٠٨، وكان الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع، وصاحب هذه الورقة، وآخرون من بين من وُجِّهت إليهم الدعوة الكريمة، وقد لبيناها بكل ترحاب وشكر، وقد اطلعنا في تلك الزيارة على عدد من المعالم الأثرية في دُومَة الجندل، من بينها حصن الأُكيدر ومسجد عمر بن الخطاب، والبئر العادية المنحوتة في الصخر التي كان يشرب منها أهل دومة الجندل قديمًا، ثم اصطحبنا الدكتور زياد السديري بالحافلة إلى زيارة عدد من المزارع النموذجية الواقعة في سهل منبسط يدعى (بُسيطة). وأثناء التجوال في ذلك السهل ذكر الدكتور زيادٌ أن هذه الأرض الخصبة هي التي ذكرها أبو الطيب

المتنبي في أبيات له نظمها أثناء هروبه من مصر إلى العراق عندما قال:

بُسيطةُ مهلاً سُقيتِ القِطارا | تركتِ عيونَ عبيدي حيارى
فظنوا النعامَ عليكِ النخيلَ | وظنوا الصِوارَ عليكِ المنارا
فأمسكَ صحبي بأكوارِهم | وقد قصَد الضحكُ فيهم وجارا[1]

أما أنا فردَّدْتُ مع الدكتور زياد هذه الأبيات التي كنت أحفظها وانتهى الأمر بالنسبة لي عند هذا الحد. أما صديقي وزميلي الدكتور عبدالعزيز المانع، فقد قدحت هذه الأبيات في خاطره فكرة ما لبث أن أحسن اصطيادها ثم تنفيذها، وهي تتبع خط سير المتنبي في هروبه من مصر كما دوَّنها في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

ألا كلُّ ماشيةِ الخيزَلى | فِدَى كلِّ ماشيةِ الهَيْدَبى[2]

وتتبُّعُ سير هذه الرحلة يتطلب جهدًا كبيرًا وتخطيطًا متأنيًا، إضافة إلى قلب جسورٍ قادرٍ على تحمل قطع هذه الصحارى الموحشة.

وما إن عُدنا من تلك الرحلة إلى الرياض حتى وجدت الدكتورَ المانعَ يُظهر اهتمامًا كبيرًا بأبي الطيب المتنبي، ويتسقط أخباره في مظانها المتعددة. ولما كنتُ قد نشرت في عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م بحثًا عنوانه «الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي»[3] فإذا بالدكتور المانع يسألني في أحد الأيام عن ذلك البحث فأهديته نسخة منه، وقد استغربت سؤاله عنه؛ لأنه وإن كانت له دراسات أدبية متميزة، فإن جُلَّ اهتمامه كان منصبًّا على تحقيق المخطوطات ودراستها. فما الذي يهمه إذًا من دراسة في موضوع نقدي؟

وتتبعُ سيرِ رحلة المتنبي يتطلب جهودًا مضنية ربما لا يتحملها جسدُ صاحبي، كما أن خطَّ سير الرحلة يمر بخمس دول هي: مصر، والأردن، وسوريا، والسعودية والعراق، وبصحارى شاسعة وموحشة، ومعظم الطرقِ التي سلكها أبو الطيب غيرُ معبدة، ولا يخاطرُ بالسير في تلك الصحارى الموحشة إلا من يملك قلبًا جلدًا

له شبَهٌ بقلب تأبط شرًّا أو الشنفرى، وجسدًا قويًّا قادرًا على تحمل المشاق، فكيف الأمر وصاحبي نحيل الجسد، وقد أجريت له عملية قلب مفتوح منذ سنين عديدة، لكن هذه العوائق كلها لم تثن عبدالعزيز المانع عن عزمه، فهو في حياته يتمثل قول القائل:

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمَه ونكَّبَ عن ذِكرِ العواقب جانبا

وأنا أعرف عزماتِ صاحبي التي لا تلين؛ فهو إذا أراد شيئًا وضعه نصبَ عينيه ثم بذل جهودًا غير عادية حتى يحصل عليه.

الاستعداد للرحلة:

بدأ الدكتور المانع عملَه بتتبع أخبار أبي الطيب المتنبي، وتنقلاته في الأقطار التي زارها، وذكَرَ علاقته المتميزة مع سيف الدولة، ثم ما شاب تلك العلاقة من فتور دفع أبا الطيب إلى أن يلمِّحَ في إحدى قصائده إلى أنه سيتجه جنوبًا (إلى كافور بمصر)، حيث قال متحدثًا عن المطايا:

لئن تركن ضُمَيرًا عن ميامننا ليحدثُنَّ بِمَن ودّعنَهم ندم[٤]

وقد ذهب المتنبي إلى مصر آملاً أن يوليه كافور ولاية تُشبع طموحه، وقد أكرمه كافور وقرَّبه، وصار يُحكِّمهُ في أشعار الشعراء الذين يمدحونه[٥]، وكان كافور يستمتع بمدائحه فيه. أما الولاية فما أفضل عليه بها؛ لأن كافورًا لم تنطلِ عليه أطماعُ أبي الطيب، ولم يفتْ عليه تعريضُه الدائمُ به في شعره، ولهذا نجد المتنبي يخاطبه قائلاً:

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله؟ فإني أغني منذ حين وتشرب[٦]

صار كافور يحْذرُ أبا الطيب خشيةً من هجائه له بعد أن لم يحقق له مطلبه، فوضعه تحت ما يشبه الإقامة الجبرية في منزله، ووضع عليه الرصد والعيون، ولكن أبا الطيب دبَّرَ خطةً محكمةً للهرب ليلة العيد، وترك في الفسطاط قصيدته

المشهورة في هجاء كافور التي مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟(٧)

واتجه صوب بلبيس في طريقه إلى الكوفة.

من هنا بدأ الدكتور المانع عمله.

لقد تتبع الأقوال التي قيلت عن استعداد المتنبي للهرب ودفنه رماحَه وسلاحه في الصحراء، ثم اتفاقه مع أمير بلبيس عبدالعزيز الخزاعي لتأمين الهروب والحماية من رجال كافور(٨).

ذكر لي الدكتور عبدالعزيز المانع مشافهة في يوم الأربعاء ١١ رجب ١٤٣٩هـ، الموافق ٢٨/ ٣/ ٢٠١٨م أن أول رحلة قام بها في سبيل جمع شتات قصة الهروب هي التوجه إلى منطقة تبوك في شمال المملكة حيث يقع جزءٌ من أرض حِسمى التي أقام فيها المتنبي فترة في فصل الشتاء، وقد تبين له في هذه الزيارة أن الجزء الذي أقام فيه المتنبي ليس هو هذا الجزء من حِسْمَى، وإنما هو ذلك الذي يقع في الأردن. ولكن ما دام في شمال المملكة العربية السعودية، فإنه آثر أن يزور بعض الأماكن التي وردت في قصيدة المتنبي في تلك المنطقة، فانتقل من منطقة تبوك إلى منطقة الجوف، حيث زار جُوش، والبويرة، ووادي الغضى، وكان ذلك برفقه صديقه القديم الأستاذ أحمد بن عبدالله آل الشيخ، وكيل إمارة الجوف(٩). ولهذا الصديق على الدكتور المانع من الفضل هو والدكتور عبدالعزيز ابن إبراهيم العبيداء، المشرف على مركز (أطلس المملكة)، ما دعاه إلى أن يهدي الكتاب إليهما، وفاء لنبلهما وعظيم فضلهما عليه، كما نص على ذلك في صفحة الإهداء، كما أنه قد ذكرهما عدة مرات في الكتاب(١٠)، وذلك للخدمات الجليلة التي قدماها له؛ إذ لولا جهودهما الكبيرة لما كان لهذ العمل أن يتم بالصورة الذي ظهر بها في هذا الكتاب، كما كان لجامعة الملك سعود بالرياض فضل كبيرٌ على الدكتور المانع، وذلك في تمويلها لهذه الرحلات بوصف العمل مشروعًا من

المشاريع البحثية التي موَّلها كرسيُّ الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، التابعُ لجامعة الملك سعود.

لقد فصَّل الدكتور المانع القولَ عن رحلاته الخمس (بل السبع) التي قام بها من أجل تتبع خط سير الرحلة، ولا تكتمل الصورة عن الجهد العظيم الذي قام به دون الاطلاع على تفاصيل تلك الرحلات، ولكن هذا الأمر لا يمكن تناوله في ورقة مختصرةٍ حُددَ لها وقتٌ قصير.

وقبل البدء في الرحلات حرص الدكتور المانع على اقتناء الخرائط الرسمية للأماكن التي مرَّ بها المتنبي في الدول الخمس، ومعلوم مدى صعوبة الحصول على تلك الخرائط الرسمية في هذه البلدان، ولكن الدكتور المانع بجهوده التي لا تكِل استطاع الحصول على كثير مما كان يبحث عنه. ويبقى بعد ذلك التطبيق على الطبيعة والبحث عن الأماكن والموارد التي مرَّ بها المتنبي أو أقام فيها، التي تغيرت أسماء بعضها، أو دخل عليه التحريف بسبب تعاقبِ الأزمان.

وقد بحث الدكتور المانع عن منازل كافور في الفسطاط، وعن المكان الذي يَظُنُّ أنه كان يضم منزل أبي الطيب المتنبي، ثم بدأ في تتبع خط سير الرحلة مبتدئًا من الفسطاط إلى بلبيس[١١]. وقد شرحَ المانعُ لماذا اختار المتنبي بلبيس دون غيرها، وهو أنه يوجد بها صديق قديم للمتنبي هو عبدالعزيز الخزاعي (زعيم قبيلة قيس عيلان)، الذي اتفق المتنبي معه، فيما يبدو، على تأمين الحماية والأدِلاء له في جزيرة سيناء في طرق مختلفة عن طرق التجارة والحج المعروفة التي تقع ضمن سلطة كافور، وذلك أن كافورًا قد بعث خلف المتنبي رجالاً أوكل إليهم مهمة القبض عليه وإعادته إلى الفسطاط؛ ولهذا فإن المتنبي لم يسلك الطرق المعروفة، بل تجنبها متعمدًا على الرغم من أنها الأقربُ إلى وصول الهدف وهو الكوفة؛ وذلك تلافيًا لوقوع ما كان يُحاذر منه، ولهذا السبب فإننا نجد في خط الرحلة، التي رسمها الدكتور المانع وأرفقها بالكتاب، تعرجات كثيرة، فنحن نجد المتنبي أحيانًا يعزم على الذهاب إلى جهة ما ولكن ما إن يُذَكَرَ له أن هذا الطريق ربما

يؤدي إلى مواجهة مع رجال كافور حتى يغير المتنبي الطريق ويسلك طريقًا آخر بعيدًا عن الخطر، فمسيره مسيرُ الخائف الذي يبحث عن الأمن. وأحيانًا أخرى نجد المتنبي يتوقف عن المسير ويكمُن طويلاً قد يصل أحيانًا إلى الشهر الكامل حتى يطمئن إلى خلو الطريق مما يحاذره، ثم يواصل السير بعد ذلك.

وبإلقاء نظرة عجلى على الخريطة المرافقة للكتاب والموضح عليها الأماكن التي مرَّ بها نجد بلبيسَ، ووادي سدر، ونجعة الطير، والثمد، ورأس النقب، والنقع، وغرندل، وتربان، وجبل إرم، وكبد الوهاد، ورأس الصوان، والكفاف (الفكوك)، والبويرة، ووادي الغضى، وجوش، وبُسَيطة، والجراوي، والأضارع، ودُومة الجندل، والشغور، والجميعي، والبَرِّيت، وأعكُش، والرُّهَيمة، والدَّنا، ثم الكوفة.

وقد ذكر الدكتور المانع أنه لم يقف شخصيًّا على الأماكن الواقعة في الجزء الخاص بالعراق، وذلك بسبب الظروف السياسية التي كان يمر بها العراق زمن القيام بتلك الرحلات، ولكن المرحوم هلال ناجي، الذي كان يقيم آنذاك في كردستان، والذي استعان به الدكتور المانع، قد طلب من عميد كلية الآداب بجامعة الكوفة أن يزود الدكتور المانع بإحداثيات المواقع المتصلة بخط سير الرحلة الموجودة بالعراق وقد فعل[١٢].

هذا الذي ذكرته هنا إنما هو اختزالٌ مُخلٌّ للرحلة، فبعض هذه الأماكن قد زارها الدكتور المانع مرتين، وبعضها زارها ثلاثًا. أما الجزء الخاص بحِسْمى، الذي يقع في الأردن، والذي ذُكِرَ أن المتنبي قد بقي فيه قرابة الشهر، وطابت له الإقامة فيه، فقد زاره المانع مرتين: الأولى للوقوف عليه بصفته جزءًا من الرحلة، والثانية للتأكد من جمال حسمى وقت الربيع؛ ففي الزيارة الأولى لم تكن الأرض معشبة، ولم تكن بذات الجمال الذي أعجَبَ المتنبي، أما الزيارة الثانية فقد أنشأها الدكتور المانع لكي تكون في ذات الشهر، الذي يُرجِّحُ أن المتنبي قد زارها فيه وهو شهر فبراير، هذا الشهر الذي تخصب فيه الأرض، وتأخذ زخرفها، وتتزين بحلة الربيع[١٣].

وقد اتخذ المانع من قصيدة أبي الطيب المتنبي التي تحدث فيها عن رحلته، ومن المقدمة المكتوبة لهذه القصيدة، ومقدماتِ بعضِ القصائد الأخرى ذاتِ الصلة بالرحلة أساسًا لدراسته. وطبعة الديوان التي اعتمد عليها هي تلك التي أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر عام ١٩٤٤م، وقد أصدرت اللجنة هذه الطبعة بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للشاعر، وقد وُصفت هذه الطبعة بأنها «تعتمد على أقدم النسخ وأصحِّها، وتمتاز بزياداتٍ في الشعر ومقدماتٍ للقصائد طويلةٍ كتبها المتنبي، وتعليقاتٍ قيمة للشاعر نفسه، وقد صححها وقارن نسخها، وجمع تعليقاتها الدكتور عبدالوهاب عزام»[١٤].

وقد اعتمد الدكتور المانع في تحديد المواضع الواردة في القصيدة على أقوال الجغرافيين العرب القدماء، وهم كُثْرٌ، وعلى ما دونه الرحالة التشيكي (موزل) في كتابه **في الصحراء العربية: رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب**، وعلى أقوال البلدانيين المعاصرين؛ أمثالِ الشيخ حمد الجاسر رحمه الله، وهو العالمُ الثبت المتخصصُ في جغرافية الجزيرة العربية، والدارسين الآخرين من أمثال الأستاذ أحمد رمزي، الذي وصفه الدكتور المانع بأنه رجلُ اقتصاد محب للأدب، كتبَ بحثًا في مقالات ثلاث نشرها في **مجلة الرسالة** المصرية عن رحلة أبي الطيب من مصر إلى الكوفة، والدكتور يحيى جبر، عضو المجمع الفلسطيني، الذي كتب بحثًا مطولاً تحت عنوان «تحقيق أعلام الطريق التي سلكها المتنبي هاربًا من الفسطاط إلى الكوفة»، وكذلك الأستاذ أحمد يوسف الشيراوي الذي ألَّفَ كتابًا عنوانه **أطلس المتنبي: أسفاره من شعره وحياته**، والأستاذ فرحان عبدالله أحمد الفرحان الذي ألف كتابًا عنوانه: **قصة هروب المتنبي ورحلته من الفسطاط إلى الكوفة**[١٥]. وقد أثنى الدكتور المانع على جهود هؤلاء الدارسين باستثناء الأستاذ فرحان الذي خصَّ المانع كتابَه بقوله: «هذا عمل عجيب غريب، فعنوانه لا يتطابق مع محتواه، إذ ليس فيه عن قصة هروب المتنبي إلا القليل، بل إن جُلَّ ما فيه لا علاقةَ له بقضية الهروب»[١٦].

وقد واجهت الدكتور المانع مشكلةُ تكرار الاسمِ الواحد في أكثر من منطقة؛ مما أحدث لبسًا لدى بعض الجغرافيين الذين لم يقفوا على هذه الأماكن كما وقف عليها المانع، ويربطوها بخط سير الرحلة حتى ينكشف لهم الخطأ؛ وذلك مثل اسم: وادي القرى، ووادي المياه، وغيرهما. وبالتالي وجدناهم قد صرفوا خط سير الرحلة في بعض المواضع إلى أماكن بعيدة جدًا لا تُوصِلُ إلى الوجهة التي كان يقصد إليها المتنبي. وقد صحح المانع تلك الأخطاء الجغرافية معززًا وجهة نظره بأدلة مقنعة جدًّا(١٧).

وقد اشتمل الكتاب على خريطة علمية لخط الرحلة مرسومةٍ بأحدث مواصفات رسم الخرائط الجغرافية، وعلى شريط ممغنط، وعلى عدةٍ ملاحق هامة، وصور كثيرة للمواقع التي زارها الدكتور المانع وفريقُهُ العلمي، وفي كثير منها تظهر صور شخصية للدكتور المانع وفريقُ الرحلة، وفي بعضها ظهروا وهم على ظهور الجمال بملابس نظيفة جدًا!!!.

شاعرية المتنبي وتأثيرها الكبير على الدكتور المانع:

لقد قام الدكتور المانع في كتابه **على خطى المتنبي** بتتبع دقيق لجميع محطات الرحلة وناقش بمهارة وجسارة آراء العلماء، واتفق معهم أحيانًا وخالفهم أحيانًا أخرى، ولم تبهره الأسماءُ ورصيدُها المعرفي العريقُ من أن يعارضها إذا وجد الدليل القاطع على خطأ رأيها، وهذا عمل رائع يقدَّر له ويُثنى به عليه بملء الفم. ولكن الكتاب تضمن أشياء أخرى تتعلق بحياة الشاعر نفسه، وما حصل له عند بعض الأمراء والوزراء، ووجهة نظر الشاعر في ذلك. كما تضمن الكتاب كذلك موقفَ الدكتور المانع من الشاعر وأقوالِه، وأخذِه مجمل هذه الأقوال على أنها القولُ الفصلُ الذي لا يقبل التشكيك فيه، وقد اتخذ من القصيدة ومن مقدمتها النثرية، التي قيل: إنها من صنع المتنبي، دليلاً رأى أنه يمثِّل الحقيقة التامة، وكأن الدكتور المانع لم يسمع بقول أبي الطيب:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم(١٨)

وقوله واصفًا إيقاع سعيدِ بن عبدالله الكلابي ببني تميم:

هو الهُمام الذي بادت تميمُ به ... قدمًا وساق إليها حينُها الأجلا
لما رأته وخيلُ النصر مقبلةً ... والحرب غيرُ عَوان أسلموا الحِللا
وضاقت الأرض حتى كان هاربُهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلا
فبعده وإلى ذا اليوم لو ركضت ... بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا[١٩]

وقوله:

أيُّ محلٍ أرتقي؟ ... أي عظيم أتقي؟
وكلُّ ما خلق الله ... هُ وما لم يخلقِ
محتقرٌ في همتي ... كشعرة في مفرقي![٢٠]

والمتنبي يقول هذا الكلام وهو لما نثَرَ سيف الدولة على غلمانه بعض الدراهم سابقهم عليها ودافعهم حتى سقطت عنه عمامته وافتضح.

وأقواله عن كافور: الحاكم العادل الذكي الكريم؛ ومنها قوله:

جوعان يأكل من زادي ويمسكني ... لكي يقال عظيم القَدرِ مقصود[٢١]

وقوله، لما خوَّفه أبو نصر محمد الجَبُلي، أحد وجهاء دير العاقول، من فاتك بن أبي جهل الأسدي وجماعته الذين كانوا ينتظرون عودته من بلاد فارس ليأخذوا بثأرهم منه بسبب هجائه لضبة الأسدي، ابن أخت فاتك، وقد أشار عليه الجَبلي بأن يأخذ معه خُفراءَ يكونون معه فأجابه المتنبي قائلاً: «أما والجُراز في عنقي فما بي حاجة إلى مؤنس غيره»، ولما ألح عليه الجبلي وغلام أبي الطيب بأن يأخذ معه عشرين رجلاً من الخفراء يسيرون بين يديه إلى بغداد غضب المتنبي، وقال: «والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأني سرت في خفارة أحد غير سيفي... أبِخُرْء الطيرِ تُخَشِّيني؟ ومِن عبيد العصا تخاف علي ؟ والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خُفٌّ ولا ظلفٌ أن

يرِدهُ. معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين. فقلت له: قل: إن شاء الله، فقال: هي كلمة مقولة لا تدفع مقضيًّا ولا تستجلب آتيًا، ثم ركب فكان آخرَ العهد به»[٢٢].

وقد خرج إليه فاتك ورجالُه بُعَيْدَ مغادرته دَيْر العاقول فقتلوه، وابنه، وغلمانه، وأخذوا الأموال التي معه. ويضيف أبو نصر الجَبُلي: «ولما صح عندي خبرُ قتله وجَّهت مَن دفنه، ودفن ابنه، وغلمانه، وذهبت دماؤهم هدرًا»[٢٣].

لم تفد المتنبي ادعاءاته عندما جدَّ الجد، فقد قُتِل والجُراز معه ولم يقتُل أحدًا.

كيف يجمع الدكتور المانع بين حرص أبي الطيب على وجود الخفارة بين يديه في كل موطن من مواطن رحلة الهروب وبين ما نقله عنه أبو نصر الجَبُلي الذي أضاف المتنبي في منزله بدير العاقول، وأشار عليه بأخذ الخفراء معه، ولما رفض ذلك عرض عليه الجبلي أن يبعث معه خفراء من قبله، فرفض المتنبي ذلك العرض أيضًا، وقال ما أوردته سابقًا؟

لا شك أن أبا الطيب شاعر عظيم يملك من سحر البيان ما فاق به كثيرًا من شعراء العربية، وقد وقع في دائرة سحره كثيرون ومن بينهم أنا، وكذلك الدكتور المانع الذي صدَّقه في كل أقواله... صدقه في قوله:

ذراني والفلاة بلا دليل	ووجهي والهجير بلا لثام
فقد أرد المياه بغير هاد	سوى عدِّي لها برقَ الغمام[٢٤]

وصدَّقه عندما وصف معرفته ببعض الأراضي قائلاً لمحدثه: هذه أماكن قد قتلتها خبرًا. وغير ذلك كثير مما لا يسمح الوقت بتفصيله.

لا أظن أن الدكتور المانع يجهل تعالي أبي الطيب المتنبي، وسلاطة لسانه، ومبالغاته القبيحة، ولكن شاعريَّةَ المتنبي المهيمنة غطَّت على عيني صديقي الدكتور المانع وحالت بينه وبين رؤية بعض الأمور على حقيقتها، ومن بينها أن أبا

الطيب يلقب بالمتنبي[٢٥]، وأنه ليس نبيًّا لا يكذب ولا يبالغ. وإنما هو شاعر، وأن الله قد قال عن الشعراء:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[٢٦].

وبما أن أبا الطيب، كما تواتر في الروايات الأدبية، قد تنبأ وهو شاب، فالمفترض في الدكتور المانع أن يكون مدققًا في كل ما يصدر عن هذا المتنبيِّ الشاعر، لا أن يسلم إليه قياده كما فعل.

الهوامش:

(*) أصل هذا البحث محاضرة ألقيت في مجلس حمد الجاسر بتاريخ ١٤٣٩/٨/٥هـ، الموافق ٢٠١٨/٤/٢١م

(١) أبو الطيب المتنبي، **ديوان أبي الطيب المتنبي**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، صححها وقارن نسخها وجمع تعليقاتها الدكتور عبدالوهاب عزام، القاهرة، ١٩٤٤م، ص، ٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص، ٤٩٦.

(٣) محمد بن عبدالرحمن الهدلق، «الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي»، **مجلة جامعة الملك سعود**، المجلد السادس، الآداب (٢) ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص، ٤٢٩-٤٧٦.

(٤) **الديوان**، ص، ٣٢٥

(٥) عبدالعزيز بن ناصر المانع، **على خطى المتنبي**، جامعة الملك سعود، كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ص، ٨٠.

(٦) **الديوان**، ص، ٤٦٥.

(٧) المصدر نفسه، ص، ٤٨٥.

(٨) **على خطى المتنبي**، ص، ٦٤-٦٥، ٦٧-٦٩، ٧٢، ٧٩-٨٧.

(٩) المصدر نفسه، ص، ١٣-١٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص، ٥، ٩، ٢٠-٢٢، ٢٨، ٣٢، ٢٣١-٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٦٠-٢٦٦.

(١١) المصدر نفسه، ص، ٢٤، ٢٦-٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، ص، ٢٨، ٢٩.

(١٣) المصدر نفسه، ص، ١٩، ٢٢.

(١٤) **الديوان**، صفحة العنوان، وانظر أيضًا: الصفحة (ل) من مقدمة الدكتور عبدالوهاب عزام للديوان.

(١٥) **على خطى المتنبي**، ص، ٧٦، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١١١، ١١٥، ١١٨-١٢٥، ١٣١، ١٣٣، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨-١٨١، ١٨٤-١٨٦، ١٨٨.

(١٦) المصدر نفسه، ص، ١٩٣- ٢١١.

(١٧) المصدر نفسه، ص، ١١٥، بشأن تصويب خطأ الدكتور مصطفى السقا وزملائه في تحديد موقع النقاب، ووادي المياه، ووادي القرى، وتنظر الصفحات ١٥٠، ١٦٤، ٢٧١ بشأن مناقشة آراء الشيخ حمد الجاسر.

(١٨) **الديوان**، ص، ٣٢٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص، ١٢.

(٢٠) يوسف البديعي، **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي**، تحقيق، مصطفى السقا ومحمد شتا، وعبده زيادة عبده، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٣٦، ص، ٥٤.

(٢١) **الديوان**، ص، ٤٨٧.

(٢٢) **الصبح المنبي**، ص، ١٧٣-١٧٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص، ١٧٤.

(٢٤) **على خطى المتنبي**، ص، ٧٦-٧٨.

(٢٥) انظر عمًّا قيل عن ادعائه النبوة: **الصبح المنبي**، الصفحات، ٥٢-٦٨.

(٢٦) سورة الشعراء، الآيات، ٢٢٤-٢٢٦.

الشيخ محمد العلي الحركان
أول وزير للعدل
ورائد حوارات الأديان مع الفاتيكان

١٣٣٣هـ - ١٤٠٣هـ (١٩١٢ - ١٩٨٣م)

د. عبدالرحمن الشبيلي(*)

عندما يُذكر اسم الشيخ الفقيه محمد الحركان في المجتمع السعودي، لا يخطر في البال علمه الشرعي وخبراته في القضاء وسمات شخصيّته القويّة السمحة فحسب، لكن الأذهان تستعيد على وجه الخصوص منهج الإصلاح الداخلي، الذي أعلنه الأمير فيصل بن عبدالعزيز، عندما كان وليًّا للعهد ورئيسًا لمجلس الوزراء عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م إبّان حكم أخيه الملك سعود، وهو المنهج ذو النقاط العشر الذي التزمت فيه الحكومة بخطّة للحكم، وذلك بمناسبة تشكيل وزارة جديدة في ذلك العام، سمّيت بموجبه حينئذٍ (وزارة الإصلاح). وقد تضمّن بنده الثالث «العمل على إصدار نظام يضمن استقلال القضاء وحصانته، مع إنشاء مجلس أعلى للقضاء ووزارة للعدل...إلخ»، فكان الشيخ الحركان ممن ارتبط اسمه بالتطوير المذكور.

وبالرّغم من المكانة المجتمعيّة والرسميّة الجليلة التي احتلّها الشيخ الحركان، والمناصب والمهمّات الحكوميّة والعدليّة التي تبوّأها (القضاء، العدل، الحوار

الإسلامــي المسيحــي، رابطة العالم الإسلامــي) إلا أن القليل في سيرته قد كُتب، ممــا جعــل الباحث يجــد صعوبة في تقديم ترجمــة وافية عنــه، وكان مما ساعد في كتابــة هذه النبذة عن حياتــه كون كاتبها تعرّف إليــه، واستضافه في برامجه التلفزيونيّة، وسافر معه، كما سيأتي.

وكان ممّــن خصّه بالذكر الشيخ محمد بــن ناصر العبودي، الذي ألّف كتابًا مستقلًّا للحديث عن الحركان من خلال معرفته به، صدر عام ١٤٣٣ هـ/ ٢٠١٢م ضمــن خمسة مــن مشايخ المملكة، عرفهــم عن قرب، وتعامل معهــم، وأفرد لكل واحد منهم كتابًا مستقلًّا ضمّنه ما يعرفه عنهم، فهو بهذا لم يتطرّق إلى سيرته إلّا من خلال هذه الزاوية، لكن الكتاب يظل ركنًا مهمًّا في كتابة سيرة الحركان.

توجــز المعلومــات الأوّليّــة المدوّنة عنــه أن منشــأ أسرة الحــركان في عنيزة بالقصيــم، وهــي تتفرّع من أســرة الخريجــي المعروفة، برع معظــم أفرادها في التجــارة، وكان الشيــخ محمــد وُلد وترعــرع في كنف والده قاطــن المدينة المنوّرة والمولــود فيها أيضًا، وأمضى الابــن دراسته بين المسجد النبوي الشريف ومدرسة العلوم الشرعية، التي أسسها أحمد الفيض أبادي، وكانت المدرسة النظامية شبه الوحيــدة في ذلك الوقت، فحفــظ الحركان في هذه المدرسة القــرآن الكريم وهو دون العاشــرة، وتعلــم مبادئ العلــوم الحديثة فيها، وكان مــن معلّميه في الحرم وفي تلك المدرسة الشيــخ السلفي المعروف محمد الطيب الأنصاري (المتوفّى عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٢م)، وهو والد الدكتــور عبدالرحمن الأنصاري، الأثري المعروف، وكان من زملاء الحركان الأديبان المدنيّان المعروفان: ضياء الدين رجب، ومحمد حسين زيدان.

وفي عمــر العشرين، بدأ يمارس الإمامــة والتدريس الصباحي والمسائي في الحــرم، ويــزاول التجارة في سوق الحبّابــة إلى جانب التدريــس والإمامة، كما مــرّ في هذه الأثنــاء بالقضاء لعام واحد في مدينة العُلا (في الشمال الغربي من المملكــة العربيّة السعوديّة)، وهي في الوقت الراهن محافظة تتبع إداريًّا لمنطقة المدينــة المنــوّرة.

ببلوغه الثلاثين (بداية عهد الملك سعود) عيّن رئيسًا لمحكمة جدة خلفًا للشيخ محمد البيز، فاستمر فيها قرابة عشرين عامًا، ذاع صيته وحاز سمعة كبيرة في الوسط القضائي والاجتماعي، وكان من ضمن ما حقّقه في مجتمع جدة خلال هذه الفترة، مرتبة عالية في ثقة الناس بالسعي بين المتخاصمين لفضّ المنازعات الأسريّة والتجاريّة عن طريق الصّلح خارج إطار إجراءات التقاضي في المحكمة، كما كان الشيخ الحركان في هذه الأثناء يُكلّف ببعض المهمّات المتّصلة بأحوال الدارسين في الخارج.

ويُستفاد من كتاب الشيخ العبودي أن الملك سعود اختار الشيخ الحركان ليكون نائبًا غير متفرّغ للشيخ المفتي محمد بن إبراهيم في رئاسة الجامعة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، وبعد أن استجاب الحركان لهذا التكليف بضعة أسابيع، طالب أهلُ جدة ببقائه رئيسًا للمحكمة الشرعيّة فيها.

وعندما شارف الشيخ الحركان على السّتين من العمر (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) اختاره الملك فيصل ليكون أولَ وزير للعدل بعد تحويل رئاسة القضاء آنذاك إلى وزارة.

وكان من أبرز ملامح تلك الحقبة، اختياره في مارس من عام ١٩٧٢م لرئاسة أول وفد للحوار بين علماء المملكة وأركان العالم المسيحي، شاركه فيها عدد من العلماء والمفكّرين؛ هم المشايخ محمد بن جبير، وراشد بن خنين، وعمر المترك، وعبدالعزيز المسند، ومحمد المبارك، ود. معروف الدواليبي، ود. منير العجلاني؛ بهدف شرح الشبهات التي تثيرها الأوساط المسيحيّة تجاه المواقف الإسلامية في بعض الأمور الدينيّة والدنيويّة، وشملت الزيارة كلًّا من دولة الفاتيكان وجنيف وستراسبورغ، للهدف ذاته.

وشهدت فترة تولّيه وزارة العدل تشكيل الهيئة العليا للدعوة الإسلاميّة برئاسته وعضويّة وزير الحج الشيخ حسن كتبي، ووزير المعارف الشيخ حسن آل الشيخ، ورئيس الإدارة العامة للإفتاء والبحوث الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وأمين عام رابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد سرور الصبّان.

بتقاعده عند بلوغ الخامسة والستّين (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) اختير أمينًا عامًا لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرّمة، خلفًا للشيخ محمد صالح قزّاز، وشهدت الرابطة خلال السنوات السبع اللّاحقة التي سبقت وفاته في شهر رمضان المبارك عام (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) نشاطًا مشهودًا في المؤتمرات والزيارات الخارجيّة واللّقاءات مع الأقلّيّات المسلمة والمنظّمات الإسلامية، مما لا يتّسع المقام لتفصيله، ومن بينها المؤتمر الإعلامي الإسلامي الأول الذي عُقد في جاكرتا قبل عام من وفاته، وكان كاتبُ هذا المقال مقرّرَه، وسافر مع الشيخ الحركان لحضوره.

والشيخ الحركان، بالإضافة إلى تلك الأعمال، صار عضوًا في هيئة كبار العلماء، وفي مجلس القضاء الأعلى، ونائبًا لرئيس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوًا في هيئة جائزة الملك فيصل العالمية.

وللشيخ الحركان خمسة أبناء وستُّ بنات، غفر الله له وأثابه على ما قدّم.

(*) باحث سعودي

محمد عبدالخالق عضيمة سيرة حياة؛ تركي بن سهو العتيبي، مركز البحوث والتواصل المعرفي، الرياض، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م، ٧٣٦ص.

أحسن الأستاذ الدكتور تركي بن سهو العتيبي بوفائه لشيخه وأستاذه المرحوم الدكتور محمد عبدالخالق عضيمة، حيث ترجم له ترجمة حافلة في سِفر ضخم، زادت صفحاته على السبعمئة.

تناول المؤلف في هذا الكتاب حياة شيخه العلامة محمد بن عبدالخالق عضيمة (١٣٢٨هـ - ١٤٠٤/ ١٩١٠ - ١٩٨٤م) ومنهجه في التأليف والتحقيق والفهرسة. وعرض بعض ما جدَّ من كتابات عنه بعد وفاته؛ سواءً أكانت هذه الكتابات رسائلَ علميةً في عدد من الجامعات العربية، أم مقالات كتبت عنه.

وقد قسم الكتاب على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. وكانت الفصول على النحو الآتي:

الفصل الأول: كان عن حياة الشيخ، فذكر اسمه ونسبه وتعليمه وشيوخه وحياته الاجتماعية وأسفاره، ثم عرَّف بمؤلفاته ومقالاته بإيجاز، مع الإسهاب في التعريف بدُرَّة مؤلفات الشيخ، وهو كتاب **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**.

وتحدث في الفصل الثاني عن منهج الشيخ في التأليف والتحقيق والفهرسة، موضِّحًا بعض الجوانب البارزة والسمات الواضحة التي سار عليها في النصوص التي حققها، وبيَّن في هذا الفصل أن الشيخ عضيمة، رحمه الله، كان الرائد في مجال الفهرسة الموضوعية النوعية.

وخصَّص الفصل الثالث للحديث عن الرسائل الجامعية التي تعرض للشيخ وجهـوده العلمية: حيث ذكر أن كثيرًا من طلبة الدراسـات العليا بحثت رسائلهم الجامعيـة جهـود الشيخ عضيمة في خدمة العلم. وعرضـ المؤلف أبرز ما في هذه الرسائل، وعلَّق عليها بما يراه مناسبًا للتعليق.

أمـا الفصـل الرابع، ويمثِّل عُظْـم الكتاب، فحصر فيه جميـع المقالات التي كتبها الشيخ عضيمة، ونشرها في مجلات مختلفة، وكانت على ثلاثة أنواع؛ الأول: المقالات التي تتعلق بالدراسـات القرآنية، والثاني: المقالات التي تتعلق بالأعلام، والنـوع الثالث: المقـالات التي تتعلق بتجـارب الشيخ. وبلغ مجمـوع هذه المقالات عشريـن مقالـة، أحسن المؤلف في لَمِّ شَعثها وجمعهـا في وعاء واحد بعد أن كانت متفرقة في مجلات عدة صدرت في بلدان مختلفة وأزمان متباعدة.

وجمـع في الفصل الخامس والأخـير لعدد قليل مما كتب عن الشيخ عضيمة من مقدمات ومقالات، ومنها مقدمة العلامة محمود محمد شاكر لكتاب **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**.

رحـم الله العلامة الشيخ محمـد عبدالخالق عضيمة كِفاءَ مـا قدَّم للعربية وأهلهـا، وشكر الله لتلميذه الدكتـور تركي العتيبي على وفائه لشيخه وترجمته له هذه الترجمة الحافلة.

إبراهيم باجس عبدالمجيد

يعتزم مركز حمد الجاسر الثقافي

نشر عينات من مراسلات الشيخ المتوافرة، والمتبادلة مع المفكّرين والباحثين في مختلف الأمصار.

وبهذه المناسبة يدعو من يحتفظ بشيء منها إلى التكرّم بتزويدنا بها على العنوان التالي:

ص. ب: ٦٦٢٢٥ ـ الرياض: ١١٥٧٦
info@hamadaljasser.com